

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

خير الدين الزركلي شاعر الوطن ...



د. أكرم جهيل قنيس



دراسات في الأدب العربي

□ خير الدين الزركلي
□ شاعر الوطن ...

تصميم الغلاف
فراس نعوف

د. أكرم جميل قنيس

خير الدين الزركلي شاعر الوطن ...

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١ م

خير الدين الزركلي شاعر الوطن... / أكرم جميل قنيس . - دمشق :
الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١ م . - ١٢٠ ص ؛ ٢٤ سم.

(دراسات في الأدب العربي ؛ ٤)

١ - ٩٢٨ : الزركلي، خير الدين ق

٢ - ٨١١,٩٥٦١٠٠٩ ق ن ب خ - العنوان

٤ - قنيس ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

دراسات في الأدب العربي

« ٤ »

آراء في الشاعر

... كان موته مفاجأة لي، لأنني كنت أتمنى لقاءه، والجلوس معه،
والاستماع إلى حديثه...

العماد مصطفى طلاس

... سعيت إليه، وخُيِّل إليّ أن الشاعر الكبير، ينبعث من قلب
التاريخ، وأنتني في جلوسي إليه، أجلس إلى التاريخ نفسه...

د نجاح العطار

وزيرة الثقافة في سورية - سابقاً

نائب رئيس الجمهورية العربية السورية

« خير الدين الزركلي، شاعر مجيد معاصر، من أكبر شعراء القومية
العربية، ومن أرقهم عاطفة، وأصفاهم أسلوباً... »

الشاعر أنور العطار

« ... ومن أدباء دمشق، الشاعر المجيد السيد خير الدين الزركلي،
رأيته ينحو في شعره نحو فلسفة المعري »

محمد الخضر الحسني

شيخ الجامع الأزهر

« خير الدين الزركلي، أحد الشعراء القلائل، الذي خالطت أشعاره
حياتنا منذ عهد الطفولة، فكانت كالنقش على حجر...»

الشاعر شوقي بغدادى

« خير الدين الزركلي، قمة باذخة من الأدب والفن، يقف إلى جوار
حافظ إبراهيم وبشارة الخوري، وإيليا أبي ماضي وبدوي الجبل...»

الشاعر أحمد الجندي

* * *

m

لقد وقع الوطن العربي في النصف الأول من القرن العشرين تحت وطأة الاحتلال الاستعماري الجديد، على حين كان أبنائه، ينتظرون رحيل الدولة العثمانية، وإنهاء احتلالها الذي دام أربعة قرون، عانى فيه الوطن ما عانى من الموت الثقافي والفكري، والجمود الحضاري، والتدهور الاقتصادي والاجتماعي، إلى جانب التضحية بأكثر عدد من سكان هذه الأمة، إثر المصادمات التي كانت تقع بين الثوار وعساكر الاستعمار القابع فوق صدر الوطن.

ونتيجة تفتح الوعي العربي، والدخول في مرحلة اليقظة العربية، حملت نخبة من أبناء الوطن شعلة الكفاح والثورة، وبدأت تسير في طريقها، غير مبالية بما ستلقاه من مضايقات وملاحقات، وسجن أو نفي، أو إعدام.

وقد كان شاعرنا «خير الدين الزركلي»، واحداً من هؤلاء الذين عاصروا مرحلة الحكم العثماني، وغنوا لفجر الاستقلال الذي سيتحقق بعد الحرب العالمية الأولى، وشاهد بأم عينيه، كيف انهارت الأمانى الشعبية إثر دخول الفرنسيين إلى بلده الحبيب (سورية)، فانهار بذلك حلم الاستقلال والتحرر، وبدأ الشعب العربي مرحلة صراع جديدة مع القوى الغازية للوطن العربي.

وتصدّى الشاعر الزركلي للفرنسيين بفكره وقلمه، فاعتُبر محرصاً للثورة ضد الفرنسيين، ومعارضاً لدخولهم، فحكموا عليه بالإعدام، مما اضطره لمغادرة دمشق، متوجهاً إلى بلاد الحجاز. وهناك من يقول: «إن الفرنسيين حكموا عليه بالإعدام لأنه خرج مع القوّة المتصدية للفرنسيين بقيادة الوزير الشهيد «يوسف العظمة».

ومهما يكن، فإن كان الأمر الأوّل فهو جهد فكري، وإن كان الأمر الثاني، فهو تضحية بالنفس، وكلاهما في سبيل الوطن، وحُكّم الفرنسيين واحدٌ، هو الإعدام.

وهنا تبدأ مرحلة الكفاح والنضال ضد معركة الحياة والاستعمار ويعيش الشاعر حياته، متنقلاً في مختلف البلاد العربية. فهو المواطن الذي وُلد في بيروت من أبوين دمشقيين، ونشأ وترعرع في دمشق، وتجنّس بالجنسية العربية في الحجاز، وشارك في إنشاء إمارة شرقي الأردن مع الأمير «عبد الله بن الحسين» ثم توجّه إلى فلسطين أيام صراع العرب الفلسطينيين مع اليهود والبريطانيين. ثم توجّه إلى مصر (١٩٣٤) حين صدر قرار تعيينه مستشاراً للوكالة (ثم المفوضية) العربية السعودية بمصر، ومثّل المملكة العربية السعودية في عدة مؤتمرات دولية، ثم نُدب في عام ١٩٤٦ لإدارة وزارة خارجيتها، ثم وزيراً مفوضاً ومندوباً دائماً لدى جامعة الدول العربية ١٩٥١، ووقتها باشر طبع كتابه (الأعلام).

ثم عين بعد ذلك في عام ١٩٥٧ سفيراً ومندوباً للمملكة في المغرب، توجّه منها إلى الحياة في بيروت، وقد سُمّي سفيراً في وزارة الخارجية السعودية.

وقد تَلَفَت الشاعر منذ مطلع شبابه إلى معالي الأمور، ونظر إلى نضال قومه نظرة الجدّ، فعكف على رسم النضال والكفاح، وكان شعره سجلاً للأحداث النضالية الوطنية التي جرى أكثرها وهو بعيد عن موطنه. والشعر

عنده شعور ينبض به قلبه، حين تثيره الأحداث الكبرى، وحين تدغدغه ذكريات الوطن، وذكريات الأمجاد العربية، وحين يبهجه منظر جمال الطبيعة، أو سرّ من أسرار الحياة الغامضة.

وقد عاش الشاعر وفي صدره حبّ الأرض والوطن، ومرارة الغربة والتشرد، وكان الهم الوطني هو الهاجس الأول، فبات البلبل الصّداح الذي يعزف للوطن والأمة، ويغني للحرية، ويضرم الحقد في النفوس من أجل الثورة ضد المستعمرين لطردهم من أرضنا العربية... وكثيراً ما كان الشاعر، يجاهر بمن لا يكون مخلصاً في موقفه الثوري. وحبّه الوطني كبير، يتعدّى الحدود والخرائط، وقد كان يتألم كثيراً لجراح وطنه، وينبعث الأمل في نفسه كلّما هبّت ثورة، ونادى منادٍ للجهاد، كما كان يحرض الشعب باستمرار للثورة ضد المستعمرين وضد عملائهم من الحكام.

«إنه شاعر نذر نفسه لوطنه، لأماله، لآلام، عرف قدسية الكلمة، فعاش في حرابها، وألهب بها الغاصبين والمستعمرين بشواظ من نار، بقدر ما ألهب المشاعر وأثار العواطف، وأثر في العقول، أحبّ وطنه بمشاعره وأحاسيسه كلّها، فكان بشعره الشعلة المضيئة في درب الحياة»^(١).

«وهو من أعظم من أنبغتهم دمشق، كما أنه عالم ترك للعرب ثروة لا تقدر بمال، هي الأعلام، وهو شاعر عظيم، وإن كان ترك، فعوض عن الشعر بالأعلام»^(٢).

(١) مجلة الثقافة السورية - العدد - شباط ١٩٧٧ - الأستاذ مدحة عكّاش.

(٢) حديث للدكتور عدنان الخطيب مع المؤلف في مجمع اللغة العربية بدمشق يوم

.١٩٨٩/٥/٢٧

إنه شاعر يملك رهافة الحس، ودقة التعبير، وجمال الصورة الشعرية، كما يحمل أسلوباً لطيفاً واضحاً، يتعد فيه عن التعقيدات اللفظية واللغوية، فالماء يتدفق من ينبوع زلالاً صافياً.

إنه شاعر، عني بقضايا وطنه، وجدد في مضمون شعره وموسيقاه، يتجلى خياله في مضامين (الوطن، الحنين، الذكرى، الأمل، الوفاء، الألم، غدرات الزمان، الاستعمار، جرائم المستعمر، التنديد بالمتخاذلين، تحريض الهمم للثورة، الحرية، الاستقلال، التضامن...).

لقد اهتم الشاعر بكل ما يمكن الوطن من النهوض، ويحمل له الخير والمحبة والسلام، فوطنه هاجسه الأول – يوم كانت كلمة الوطن والوطنية تقود إلى حبل المشنقة أو السجن – والثورة أداة خلاصه وحريته، ويكفيه فخراً أنه علم الأعلام وحامل لواء الشعر والجهاد.

د أكرم جميل قنيس
دمشق

* * *

موجز ترجمة الشاعر بقلمه (*)

خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي (بكسر الزاي والراء) الدمشقي، ولدت ليلة ٩ ذي الحجة ١٣١٠ (٢٥ يونيو ١٨٩٣) في بيروت، وكانت لوالدي تجارة فيها، وهو وأمّي دمشقيان.

ونشأت بدمشق، فتعلمت في إحدى مدارسها الأهلية، وأخذت عن علمائها، على الطريقة القديمة، وألعت بكتب الأدب وقلت الأبيات من الشعر، في صباي، وأديت امتحان (القسم العلمي) في المدرسة الهاشمية. ودرست فيها. وأصدرت مجلة «الأصمعي» أسبوعية، فصادرتها الحكومة العثمانية، لصورة، كتبت أنها صورة «الخليفة العربي» المأمون. وذهبت إلى بيروت، فانقطعت إلى الكلية العلمانية (لايبك) تلميذاً في دراساتها الفرنسية، ثم أستاذاً للتاريخ والأدب العربي فيها.

ورجعت في أوائل الحرب العالمية الأولى، إلى دمشق، وأصدرت بها، بعد الحرب (١٩١٨) جريدة «لسان العرب» يومية، مع أحد الأصدقاء. وأفقلت؛ فشاركت في إصدار «المفيد» يومية أيضاً، وهيأت للطبع مجموعة من شعري، سميتها «عبث الشباب» فالتهمتها النار، وأكلت أصولها، واسترحت منها وأرحت!

(*) اعتمدنا في هذه الترجمة على ما أورده الشاعر نفسه في مؤلفه الأعلام - الجزء الثامن ص ٢٦٧ - الطبعة الرابعة - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩.

وعلى أثر وقعة ميسلون، في صباح اليوم الذي كان الفرنسيون يدخلون به دمشق (١٩٢٠) غادرتها إلى فلسطين، فمصر، فالحجاز، وصدر حكم الفرنسيين (غيابياً). بإعدامي، وحجز أملاكي. وفي سنة ١٩٢١ تجنّست بالجنسية العربية في الحجاز. وانتدبني الملك حسين بن علي لمساعدة ابنه «الأمير عبد الله»، وهو في طريقه إلى شرقي الأردن، وكان الظنّ به حسناً، فعدت إلى مصر، فالقدس. واصطحبت منها إلى الصلط فعمان، جماعة، مهدت معهم السبيل لدخول عبد الله وإنشاء الحكومة الأولى في عمان.

وسُميت في تلك الحكومة مفتشاً عاماً للمعارف، فرئيساً لديوان رئاسة الحكومة (١٩٢١ - ١٩٢٣)، وفي خلال ذلك أبلغت حكومة «الجمهورية الفرنسية» بيتي في دمشق، أنها قررت وقف تنفيذ حكمها عليّ، فكانت فرصة لي لزيارة دمشق، والعودة منها بعائلتي إلى العاصمة الأردنية...

وقصدت مصر، فأنشأت «المطبعة العربية» في القاهرة (أواخر ١٩٢٣)، وطبعت فيها بعض كتبي، ونشرت كتباً أخرى.

وثارت سورية على الاحتلال الفرنسي (١٩٢٥) فأذاع الفرنسيون حكماً ثانياً (غيابياً أيضاً) بإعدامي! وساءت صحتي في عملي بالمطبعة فبعثتها سنة ١٩٢٧.

واستجمعت ثلاث سنوات، زرت في خلالها الحجاز، مدعواً بعد أن تسلّم آل سعود مقاليد الحكم فيه، وأصبح رعاياه - وأنا أحدهم - متمتعين برعايتهم.

وذهب إلى القدس (١٩٣٠) فأصدرت مع زميلي جريدة «الحياة» يومية، وعطلتها الحكومة الإنكليزية. فاتفقت مع آخرين على إصدار جريدة يومية أخرى في «بافا» وأعدنا لها المطبعة، وأصدرنا العدد الأول منها.

وكننت قد فوتحت في أنّ إليّ عملاً في الحكومة السعودية الفتية، وأجبت بالشكر، وأبلغني صاحب السمو الملكي الأمير فيصل آل مسعود، تعييني

(١٩٣٤) مستشاراً للوكالة ثم المفوضية العربية السعودية بمصر، فتركت
الجريدة لمن وإلى إصدارها، وتحولت إلى القاهرة.

وكنّت أحد المندوبين السعوديين، فيما سبق إنشاء «جامعة الدول
العربية» من مداولات دولية، وشاركت في مؤتمرات أدبية واجتماعية.
وانتدبت (١٩٤٦) لإدارة وزارة الخارجية، بجدة وصدر مرسوم ملكي بأن
أُتأوب مع صديقي، بل أخي، الشيخ يوسف ياسين، وزير الخارجية بالنيابة،
العمل في الوزارة، وفي جامعة الدول العربية معاً.

وسُميت (١٩٥١) وزيراً مفوضاً ومندوباً دائماً لدى الجامعة، فشعرت
بالاستقرار بمصر، وبأشرت مع أعمالها الرسمية طبع هذا الكتاب (الأعلام).

وعُيِّنت (١٩٥٧) سفيراً ومندوباً ممتازاً — حسب التعبير الرسمي — في
المغرب، حيث آلت إليّ عمادة السلك السياسي في المغرب، فقامت بها مدة
ثلاث سنوات، ومرضت سنة ١٩٦٣، ودعيت إلى الرياض، فمُنحت إجازة
للراحة والتداوي، غير محدودة. واخترت الإقامة في بيروت، فعكفت على
إنجاز كتاب كنت قد بدأت بوضعه، في سيرة عاهل الجزيرة الأول «الملك
عبد العزيز آل سعود» وهيأته للطبع سنة ١٩٧٠. وكان المجمع العلمي
العربي بدمشق قد تفضل (عام ١٩٣٠) فضمّني إلى أعضائه، وكذلك مجمع
اللغة العربية بمصر (١٩٤٦) والمجمع العلمي العراقي في بغداد (١٩٦٠)،
وقمت برحلات إلى الخارج أفادتني:

الأولى: إلى إنكلترا (١٩٤٦) ومنها إلى فرنسة، ممثلاً لحكومتني في
اجتماعات المؤتمر الطبي الدولي ببارس.

والثانية: إلى الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٤٧)، بمهمة رسمية،
غير سياسية، أمضيت فيها سبعة أشهر بين كليفلورنية وواشنطن ونيويورك
وغيرها. وحضرت في خلالها بعض اجتماعات هيئة الأمم المتحدة.

والثالثة: إلى أثينا العاصمة اليونانية (١٩٥٤) بصفة «وزير مفوض ومندوب فوق العادة» وجعلت طريق عودتي فيها إلى استانبول، لزيارة بعض مكنتاتها، وإلى حلب فيبيروت، فالقاهرة.

والرابعة: إلى تونس (١٩٥٥) مندوباً لحضور مؤتمّر إقامة الحزب الدستوري فيها. وعدت منها ماراً بايطاليا حيث تيسّر لي في خلال شهرين الطواف في أهم مكنتاتها وما زلت (سنة ١٩٧٠) في بيروت، أقوم منها بين حين وآخر برحلات إلى العربية السعودية موطني الثاني، ودمشق والقاهرة وتركيا وإيطاليا وسويسرة. وفي عاصمة هذه طبيب أتردد إليه في ربيع كل عام.

أما ما نشر من كتيبي، فهو:

١ — ما رأيت وما سمعت، وهو رحلتي الأولى من دمشق إلى فلسطين فمصر فالحجاز، طبع سنة ١٩٢٣.

٢ — عامان في عمان. من مذكراتي عن عامين في مدينة عمان، عاصمة الأردن. طبع الجزء الأول من سنة ١٩٢٥.

٣ — الجزء الأول من ديواني الشعري، وفيه ما نظمت إلى سنة صدوره ١٩٢٥.

٤ — الأعلام. الطبعة الأولى في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٢٧.

٥ — الأعلام. الطبعة الثانية في عشرة مجلدات.

٦ — ماجدولين والشاعر، قصة شعرية صغيرة.

٧ — شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز.

وبين يديّ، مما يصلح لأن يهيأ للنشر:

١ — الملك عبد العزيز في نمة التاريخ.

٢ — الجزء الثاني من ديواني.

٣ — صفحة مجهولة من تاريخ سورية في العهد الفيصلي.

- ٤ - الجزء الثاني من (عامان في عمّان).
- ٥ - قصة تمثيلية، سميتها <وفاء العرب> مُثّلت أكثر من مرّة، ابتداء من سنة ١٩١٤ ببيروت.
- ٦ - مجموعة كبيرة في الأدب والتاريخ، قديماً وحديثاً، لم أنسّقها ولم أسمّها إلى الآن.
- ٧ - المستدرك الثاني (المشرف: ضمنت كل مادة منه في موضعها من هذه الطبعة الرابعة من «الأعلام»).
- ٨ - الإعلام بمن ليس في الأعلام (المشرف: ضمنت، كذلك كل مادة منه في موضعها من هذه الطبعة الرابعة من «الأعلام»).

خير الدين الزركلي

* * *

هذا ما كتبه المؤلف رحمه الله بنفسه في الطبعة الثالثة من الأعلام، وقد تفضل صديق المؤلف الأستاذ ظافر القاسمي، أستاذ العلوم الإسلامية في الجامعة اللبنانية، بإكمال ترجمة حياته، قال: في الثالث من ذي الحجة ١٣٩٦ هـ - ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦، طوى الموت أبا غيث، خير الدين الزركلي في مستشفى بالزمالك في مدينة القاهرة. وكان قد أصيب أوائل عام ١٩٧٦ وهو في بيروت، بدوار وغيوبة، نقل على أثرهما إلى مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت، والأحداث فيها ملتبهة، فظل غائباً عن الوعي خمسة أيام متواصلات، وفي اليوم السادس، أفاق، وكان أول ما طلب فنجاناً من القهوة، ثم غاب صوته، وأخذ يطلب حاجاته كتابة، حتى أجريت له عدة عمليات، زرعت في إحداها بطارية في جوار قلبه. فأخذ يسترد بعد ذلك عافيته شيئاً فشيئاً، لاسيما وأن قواه العقلية عادت إليه كاملة.

ولمّا أصبح قادراً على المشي نصحه أطباؤه بمغادرة المستشفى، لاسيما وأن إدارة المستشفى باتت في مسيس الحاجة إلى الغرف بالنظر لتكاثر الجرحى، فخرج منه راغماً إلى فندق قريب من بيته، واستأنف فيه عمله.

وفي شهر آب ١٩٧٦، قدم إلى دمشق، فمكث أياماً في ضيافة ابن عمه الشاعر سليم الزركلي، ثم قصد مصيف بلودان، حيث التقيت به، وجلسنا ساعة تحدثنا فيها بأمر كثيرة، ليس فيها ما يدعو إلى الحزن واليأس كما أنس هنالك بلقاء صديقه شاعر الشام شفيق جبيري، فتباكيا، وكان لقاءً مؤثراً جداً.

وفي أواخر آب سافر إلى القاهرة حيث ولده الدكتور غيث وبناتان له، وقد أخبرني الأستاذ حمد الجاسر أن الفقيه أُدخل بُعيد هبوطه القاهرة مستشفى

في المعادي، وسرعان ما أخذت صحته في التحسن، فنقل إلى مستشفى في
الزمالك، وهناك ساءت صحته وتدهورت سريعاً، إلى أن فاضت روحه إلى
بارئها في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦ .

وقد أقام له النادي العربي بدمشق في كانون الثاني ١٩٧٧ حفلة تآبين
تكلم فيها بعض تلاميذه وأصدقائه، لقد طوى الموت العلم الذي خلد الأعلام،
وإننا لنطمح أن تجود بمثله الأيام.

* * *

الوطن والشاعر

الوطن مهد الشاعر، وملاعب صباه، وظلال شبابه وشيخوخته. ومن هذا المنطلق كان الوطن عظيماً في ذات الشاعر، وكان الشاعر فخوراً وكبيراً بوطنه.

فالوطن الجميل، هو الذي يجعلك تتعلق بكل حبة من ترابه، وبكل بارقة من آماله، وبكل إشراقة من ضيائه. وإذا كان المرء يعيش هذا التواصل الروحي مع الوطن، وإلى حدّ الجنون في العشق والهوى، فبورك هذا الوطن، وبورك هذا العاشق.

الوطن قلب نابض بالحب والخير والوفاء، وقلب الشاعر هو الوفي لهذا الحب، والشاكر لهذا الخير، والوفي لهذا الوفاء، ومن هنا نلاحظ أن الوطن هو الهاجس العظيم في حياة الشاعر خير الدين الزركلي، يقيم في محرابه صلاته المقدسة، ويجدد تحت شمسه جذوة عشقه ونجواه، وقد فضّله على بلاد العالمين.

ومن الطبيعي إذًا، ألا يرى العاشق حسناً إلا في وجه من عشق، ولا تقرّ عينه إلا برؤية من أحب، ولا يتنشق رائحة طيبة إلا من جهة من كان الهوى، ولا يطيب له السهر والألفة إلا مع من يألفه ويهواه:

العين بعد فراقها الوطناً لا ساكناً ألفت ولا ساكناً^(١)

(١) الزركلي، خير الدين، ديوانه ص ٢١.

وحبّ الشاعر لوطنه كبير، إنه حبّ موقد، ناره مضرمة، وجمره متوهج بين جوانحه، يعصف فيه الشوق والألم. وقلب الشاعر، وفي كل الوفاء، محبّ، مخلص في حبه، إنه كصاحبه، ما يزال قائماً على حفظ العهد والودّ، ولو أنه لم يطلق زفراته وآهاته، لنكره الشاعر، وتبرأ منه، لكنّه القلب المفعم بالوفاء والشوق والإيمان، المطهر بتراب الوطن:

والقلب لولا أنّهُ صَعِدَتْ أنكرته، وشككت فيه أنا^(١)

وقلب الشاعر، يتقلّب بنار الغربة، وألم الفراق، فليت أحبابه، علموا، وأدركوا ما ينتابه من العذاب، وما يلقاه من قسوة الفرقة والبعد.
يقول شوقي بغدادي:

«... لم يكن حب الوطن بالنسبة لخير الدين الزركلي، المدجّنة والتلاميذ الصغار. لقد كان تجربة «حياة» خطيرة كالتقابل الموقوتة التي نحملها تحت ثيابنا، وتهدّد أبداً بنسفا في كل لحظة، وحين يصدر الشعر عن معاناة يمثل هذا الصدق والخطر، فلا بد أن يحرك في الموهبة وتراً خاصاً لرنينه وقع نفاذ هو الذي جعلنا ندرك بالفطرة، ونحن صغار، أننا حيال شاعرية متوهجة نادرة المثال، فنحفظ أشعاره ونسترجعه في كهولتنا كأعذب نكري من ذكريات الطفولة. وكان شاعرية خير الدين الزركلي، كانت موقوفة على وطنه، مكبلاً بالقيود، مستحيلاً عليه بلوغه، حتى إذا تحرّر الوطن، وصار المستحيل ممكناً، توقفت قيثاره الشاعر، كي يحلّ مكانها مجهر العالم، فيكرّس باقي حياته للبحث والكشف عن تاريخ أمّته من خلال أعلامها، فيصدر معجمه الشهير «الأعلام»، جزءاً بعد جزءٍ ومجلداً بعد آخر...

إنّ الإنسان من جبلنا لابدّ أن يأخذه الأسي حين يتذكّر شاعر الثورة السورية وعالم التاريخ القومي^(٢).

(١) الزركلي، الديوان ص ٢١.

(٢) جريدة الثورة - العدد (٤٢٣٦) ١١/١٢/١٩٧٦.

لقد أحب الشاعر الحياة فوق تربته الطيبة، وإلى جانب أهله وأحبابه،
وتمنى ألا يفارقهم، وابتعد عنهم، إلا يوم تلفظ روحه الطاهرة أنفاسها الأخيرة.
وكان يشق عليه أن يرى وطنه محتلاً، مسلوب الحرية والإرادة، يعاني
من ظلم الغزاة والطامعين، ويرسف تحت قيودهم التي كثيراً ما أدمت
معصميه ومقاتليه.

ووطن الشاعر، الذي وسع الكون إباءً وكبرياء، وفاق أهل الأرض
مروءة وكرماً ونخوة، جرد الغزاة سيوفهم في صدره، وأعدوا عدتهم، كي
ينالوا من إياه وعزته، ويبعثوا في أرضه الفساد والظلم، وينهبوا خيراته.
لقد تقدّموا إليه، وهم يحملون الأفكار الثورية والإنسانية، ويتحدثون بلغة
الحرية والدين، لكن الحقيقة أثبتت عكس نظرياتهم. لقد تحدّثوا بلغة الإنسان،
لكنهم سرعان ما عاملوا الناس بلغة سفك الدماء، والضرب والإهانة والطرده
والملاحقة!

لقد تحدّثوا بلغة الحرية، لكنهم سرعان ما فرضوا الحصار على
المواطنين، ونكلوا بالمناضلين، وأهانوا الشرفاء، وكمّوا الأفواه..!

لقد تحدّثوا بلغة الدين والأخلاق، لكنهم سرعان ما نشروا الفساد
والدعارة، وهدموا بيوت العبادة، وباتوا يحرّضون الناس على الفوضى
والشدوذ الأخلاقي..!

لقد تحدّثوا بلغة الحماية والوصاية، ولكن سرعان ما بات حاميتها
حراميتها، ومن أتى ليأخذ باليد إلى طريق الهدى والحضارة، بات هو الهادم
والمضلل..!

وبالرغم من كل ذلك، فقد كان الوطن كبيراً، معتزلاً بأبنائه، شامخاً بهم،
شموخ أنف الشاعر على الظلم والعدوان والغربة:

يا موطناً عبث الزّمان به من ذا الذي أغرى بك الزّمانا
قد كان لي بك عن سواك غنى لا كان لي بسواك عنك غنى
ما كُنْتَ إلا روضةً أنفأ كَرَمْتَ وطابت مغرساً وجنى
عطفوا عليك فأوسعوك أذى وهم يسمّون الأذى مننا
وحنوا عليك فجرّدوا قُضباً مسنونة، وتقدّموا بقّناً^(١)

والشاعر الذي أبعد عن ترابه، وحكم عليه بالإعدام بسبب إعماله الفكر والقوى العقلية ضد الغزاة الطامعين مع نفر من أصحابه، ما يزال يتذكر كل شيء في وطنه... الأرض، الماء، الظلال، الغلال، الطير، الأحباب... إنه ما يزال العاشق الوفي، الذي يرى الجمال في كل ربوع الوطن، وإذا لمع له بارق الأمل والذكرى، هتف وصدح للأرض.

ويجرّد الشاعر من خياله طائراً، يقف على غصن من أشجار ضفاف نهر النيل، ويبدو أن الطائر مكسور الجناح، لاعج الشجو والغناء، وهذا يعني أحد أمرين، إما أنه غريب في هذا الوطن، وهذه الضفاف، وإما أن إلفه قد هجره، فبات يرسل ألعانه الشجية، وهنا تلتقي معه ذات الشاعر، وتتبادل معه الشعور والألم، فتطلب منه أن يزيد في شجوه وحنينه، لأن هذا الموقف يذكر الشاعر بأهله وأحبابه، فيعصف به الحنين، ويسري في دمه الشوق، ويعلن بأن هذا الطائر قد ذكره بنهر بردى وواديه، ساعة تصفّق الطيور بين غدرانه، وتغرّد لمائه العذب الرقراق، الذي ينساب، كي يبعث في نسيج الأرض الخير والغلال والبهجة للنفوس، وإلى جانب ذلك، ما يزال جمر الوفاء متقدماً في ضلوع الشاعر، حتى بات مُلكاً للشوق والحنين، ومسكاباً لدمع لا يجفّ ولا ينضب، بل يزداد انصباباً كلما أراد الشاعر أن يكفكف منه شيئاً.

(١) الزركلي، الديوان ص ٢١.

إن حب الشاعر لوطنه كبير، وأهله هم الأصل الذي ينشده الشاعر،
وهم حياته بكل ألوانها:

يا طائراً غنى على غصنٍ والنَّيل يسقي ذلك الغصنا
زدني وهج ما شئت من شجني إن كنت مثلي تعرف الشجنا
أذكرتني ما لست ناسيه ولرب ذكرى جددت حزنا
أذكرتني «بردى» وواديه والظير آحاداً به وثنى
وأحبةً أسررت من كلفي وهواي فيهم لا عجا كمنّا
كم ذا أغالبه، ويغلبني دمع إذا كفته هتنا
لي ذكريات في ربوعهم هن الحياة تألقاً وسنا

عندما يعيش الإنسان بعيداً عن وطنه، وكان ابتعد مرغماً، لا مختاراً، يبقى
الوطن هو الهاجس، وهو المقدس، وهو الذي تحن إليه نفسك، وتهفو إلى رؤيته،
وتقبيله، حتى وإن كان صنماً من الأصنام، لا يضر، ولا ينفع، وهيهات أن يقبل
الشاعر بديلاً عن هذا الوطن، أو معتقداً غير الذي اعتق:

إن الغريب معذب أبداً إن حل لم ينعم وإن ظعنا
لو مثّلوا لي موطني وثناً لهممتُ أعبد ذلك الوثناً^(١)

ويقول الدكتور سامي الدهان:

وهذا شعر رقيق فيه الحنان والحب والوطنية، يدل على اليأس بعد
الأمل، وعلى الهدوء بعد تلك الثورة، يتغذى به المهاجر الغريب، ويردده
الوطني المخلص، كلما اشتاق إلى ملعب الصبا، ومسرح الشباب، ومراد
الأمانى والكرامة.

(١) المصدر نفسه، ص ٢١.

وهو في لفظه ومعناه يشبه بكاء الثاكل وحزن المفجوع وحنين الغريب،
فلا تكلف ولا صنعة وإنما حسرة تنطلق من القلب، ويخرجها الشاعر في
القوافي... (١).

إن الإنسان الذي ولد ونشأ في وطن النضال، لن يكون إلا مناضلاً ولن
يتحول قلبه إلا إلى بركان عندما يتعرض للإهانة، وبذلك يتخلص من نفايات
الزمن العفن، ويكسب الأرض ثوباً جديداً.
والشاعر، يغني للحرية والاستقلال، ويغني للثورة التي تُخلص أبناء
قومه من برائن الظلم والعدوان.

وسورية هي موطنه الأوّل، والتي يعتبرها شريان الوطن الكبير، لذلك
فإنه يفتديها بروحه، ويغذيها من قلبه ودمه، ويوقد لها النور من عينيه وفكره
الوثاب. إنه يدافع عنها بكل ما يملك من قوة وعزيمة وإباء، كي تبقى حرة
كريمة، خفاقة الراية، مرفوعة الجبين، لا يدنو من سورها معتد، ولا يقربها
دخيل، وإن حدث ذلك فسوف نظهر أرضها بدمائنا، ونسير فوق جماجم
المعتدين الذين حسبوا وطننا لقمة سهلة الابتلاع، وتقنعوا بألف قناع، ليدخلوه،
ويسلبوه ثرواته وخيراته:

سورية نحن لها نحمي حماها أبدا
نبني لها صرح الحياة فوق هامات العدا(٢)

ويقول الشاعر: إنني هائم في حب بلادي، فماذا عسى الحساد أن
يتقولوا عن هذا الحب؟ وماذا يهمني من كل ما يقال؟ ثم إذا كان هذا الحب

(١) الدهان، سامي الشعراء الأعلام في سورية ص ١٥٩...

(٢) الزركلي، الديوان ص ٧٥.

يضير الوشاة والعدّال، فليوجّهوا إلى قلبي سهامهم ورمصاصهم، ويقتلوه شرّاً
قتلة، وعندئذ، يكفيه شرفاً أنه مات من أجل الوطن، وفي حب الوطن:

أنا في حبّ بلادي لا أبالي بملام

غضب العاذل؟ فليرشق فؤادي بسهام^(١)

ويحترق الشاعر، يوم تحترق الأمة، وتعطلّ عقلها عن التفكير والتدبير،
فهي لم تسلك طريق الهداية والرشاد، وتخلّت عن مروعتها ونجدتها، وتركت
ركابها تصهل في معاقلها، وتسابقت هي إلى مسارح الذل، وارتضت لنفسها
الهوان، فعاشت في ضياع وغربة وظلام:

كيف لا يشجى امرؤ في أمة عقت حجاها

سرحت في مرتفع الذلّ وباتت في ظلام^(٢)

وتعتبر قضايا الوطن، هي جوهر الصراع النفسي عند الشاعر، والحزن
الذي ينتابه، والأسى الذي يعتريه، كل ذلك من أجل الوطن، من أجل تحقيق
الحرية والاستقلال، من أجل استرداد الكرامة المفقودة، ومن أجل أن ترفرف
رايات العرس الثوري، فيكون الخلاص من المستعمر، وتصفو سماء الوطن:

وطني طال بكائي والأسى ممّا عراكا

أترى تصفو سمائي وكما أهوى أراكا^(٣)

إن الغيوم المتلبّدة في سماء وطنه، ليست إلا جحافل المستعمرين
والطامعين، الذين جاؤوا إلى بلادنا من أجل السلب والنهب والتخريب.

(١) الزركلي، ص ٨٨.

(٢) نفسه ص ٨٨.

(٣) الديوان ص ١٣٥.

فيا أيها الوطن المسلوب الإرادة والحرية، والمكبّل بالسلاسل والجراح:
سوف أحيأ فوق ترابك الطاهر وأعيش تحت ظلالك الوارفة، وإذا انتهى
عمري دُفنت تحت سمائك، وفي جوف تربتك، واستقرت أعظمي بين أحضان
أرضك الخيرة:

فِيكَ مَحْيَاي... وَمَثْوَى أَعْظَمِي تَحْتَ ثَرَاكَ^(١)

وحب الوطن، يرفع من مكانة الشاعر، ويجعله فخوراً، وسامياً، حتى
إنه ليرى نفسه بمرتبة النجوم علاءً ورفعة، يحمل في قلبه دفاء الوطن وحبّه
الكبير، وما هذا الحب سوى نور مشرق في قلب الشاعر، وحياء خضراء،
تجعل حياته ريانة، هانئة، متجددة:

أوطاننا نَسْمُو بِهَا هَامَ النُّجُومِ النِّيَّراتِ

نَحْيَا لَهَا فِي حُبِّهَا وَالْحَبِّ نَوْرٌ وَحَيَاةٌ^(٢)

والشاعر يحسّ بالحياة جميلة، لأنه مخلصٌ في حب وطنه، بل إن حبّ
الوطن هو الذي يجعله إنساناً حياً في الحياة، ولذلك فإن افتداء الوطن حين
يدعو أبناءه للجهاد، أمرٌ محبب إلى قلب الشاعر، لأنه يعيش حياته من أجل
وطنه، ولذلك لن يبخل عليه بشيء يمتلكه، وهو جادٌ في بذله وتضحيته حتى
يزيل القيود التي قيّدت عنق وطنه، ولا يحسب نفسه إنساناً حراً كريماً إذا لم
يدافع عن وطنه ويحقق أمنياته:

أوطاننا نَحْيَا لَهَا وَنَفْتِـدِيهَا بِالنَّفُوسِ

إِنْ لَمْ نُزِحْ أَغْلَاهَا لَا طَلَعَتْ فِينَا الشَّمْسُ^(٣)

(١) نفسه ص ١٣٥ .

(٢) نفسه ص ٢٨٩ .

(٣) نفسه ص ٢٨٩ .

ويرى الشاعر أنه في حبه لوطنه قد زاد على حبّ الأولين والأخيرين، وتجاوز فيه كل عشق، وكل عاشق، ويشهد على ذلك صدق عواطفه وأحاسيسه، وصدق ما ينتابه من المشاعر الوطنية والحبّ الوطني، الذي برى جسده، وجعل قلبه يتقلب فوق نار الشوق بالاحتراق والحنين، حتى أصبح هذا القلب موسوماً، يشهد له كل من يراه بالرفقة والنحول والاكثواء:

بلادي لحبّك في أضعلي هوىّ جزت فيه حدود الهوى
يحييّك قلبي فحيّي به فؤاداً كواه الجوى فانكوى^(١)

ويرى الشاعر: أن عشقه لوطنه، كان منذ نعومة أظافره، وقد تربي على هذا الحب، وشرب من لبنه، فسُحر بجمال بلاده وحبّ وطنه وأرضه. ولا يعتقدنّ إنسانٌ أنّ حب الزركلي، هو حبّ لبلاد الشام وحدها، أو لدمشق وحدها، فهو قبل كل شيء إنسان عربي، ترعرع فوق تراب دمشق، وتنقل في أكثر البلاد العربية، ولذلك فإنّ الحب الذي يعلنه الشاعر، هو حبّ للوطن الكبير، وللأرض العربية الممتدة، هو حبّ للشام وللمصر وللعراق، ولليمن وللمغرب العربي، ولبلاذ شبه الجزيرة العربية كلّها، وحبّ لكل الأرض ولكل البلاد، ولكل من عشق وعاش فوق تراب وطنه، وأحبّه كما هو حب الشاعر حنينٌ متواصلٌ، وجمر متقدّ، زادتته الغربة والتشرد اشتعالاً، فأصبح رياناً مخضلاً:

لبغدادَ والشام والقاهرة وصنعاء والمغرب المونسِ
وبيد تهامة، والحاضرة ونجدٍ ومن حلّ في تونس
هوى دائمٌ في ثنايا الحشا وحبّ سقته النوى فارتوى^(٢)

(١) نفسه ص ٣٢١ .

(٢) نفسه ص ٣٢٢ .

ويقرن الشاعر نفسه وقلبه مع نفس وقلب شعراء قبيلة «بني عذرة»،
الذين عُرفوا برقة قلوبهم، وقوة أحاسيسهم ومشاعرهم، ووفائهم الكبير للحب
والهوى، وهيامهم بمن أحبوا، جاعلينه كل الأمانى وكل الحياة.

والشاعر بموقفه، لا ينعم، ولا يأنس إلا إذا كان في ظلال خمائله
الوارفة، يحسّ بفيئتها، ويعشق وجهها الذي يتأمله دائماً. وهذا النعيم والأنس
والعشق، كله مستمدّ من خيرات الوطن. فكبرياء الشاعر من كبرياء الوطن،
وكذلك حبه ومجده وإياؤه:

أيا وطناً همّت في حبه هيام «بني عذرة» في العرب
نعيمي وأنسي في قرّبه وعلياؤه لي نعم الحسب
وهل أنا إلا ابن أمجاده أتية وأفخر فيما احتوى^(١)

وبما أن مجد الشاعر، مستمدّ من مجد الوطن، وعزة الشاعر من عزّة
الوطن، فإن الشاعر سيدافع عن وطنه بكل قوة، وسيبذل من أجله كل ما يملك
ليردّ عنه أذى الطامعين والمغيرين، وسيكون أسداً هصوراً من أسوده
الضارية المدافعة، كي يشارك في حمل أعباء الوطن، وتبديد همومه وآلامه
ويرفع رايته عالية خفاقة، ويساهم في بناء حضارته وتقدّمه، ليعيد إليه ما كان
فيه من رفعة ورقّي وعلاء:

أدافع بالروح عن مجده وأدفع عنه شرور العدى
إذا لم أكن فيه من أسده ولم أحمه من عوادي الردى
فمن ذا الذي يبتني صرحه وينشر من عزّه ما انطوى^(٢)

(١) نفسه ص ٣٢٢.

(٢) نفسه ص ٣٢٢.

وهذا الشعور الوطني الذي يحمله الشاعر، كان شعوره وهو ابن تسعة عشر عاماً. إنه شعور متأجج، وثورة لاهبة، هدفها إضفاء الربيع فوق ربوع الوطن، ونشر الحب بين أهله، وعشق الحرية، والحث على مجابهة الاستعمار من خلال التغني بالأمجاد والبطولات.

ويتمنى الشاعر، كما تمنى من قبله «بدوي الجبل»، أن يكون قلبه حمامة بيضاء، ترفرف حول مقام النبي r، ليغتسل من كل أدرانها، وينعم بالمغفرة والحب والرحمة، ويشعر بالأمان الأبدي الخالد:

ألا ليتني حول «المقام» حمامة	يرفرف بين «المروتين» جناحي
أروح وأغدو، حيث شاء لي	طليقاً، غدوي في يدي ورواحي
أبيت قرير العين أنعم بالكرى	مسائي ممشي غبطة وصباحي
أزق فراخي هاتفاً لهاتفها	وأرشفها من ماء <زمزم>
وآمن، لا دهري يروع بظلمه	ولا أهله يغشونني بسلاح

هذا الهروب إلى حيث مقام النبي r، هو هروب من الواقع المؤلم، الظالم، الذي يهدد أمن الشاعر وحياته، لذلك فإنه يبحث عن ملجأ للأمان والراحة.

وإن عشقه لهذا المكان يجعله يأمن على صغاره، ويجعله يكمل قصة عشقه لوطنه، وحبّه لأهله، وبهذا يكون تكامل العشق الإنساني الصحيح.

* * *

معاشته لآلام الوطن

وكفاحه الثوري

الشاعر فرد من أسرة العرب، وعلى هذا الأساس فإنه يعيش أفراح هذه الأسرة، ويعيش أجزائها وآلامها.

وقد عاش الشاعر كثيراً من الخطوب التي درجت فوق تراب وطنه، عاش أيام الاحتلال العثماني للوطن العربي، وعاش الحرب العالمية الأولى، والخروج العثماني من بلاده، وعاش قضية خيانة الحلفاء للوعود التي قطعوها للعرب، كما عاش الانقراض الاستعماري الحديث على وطنه العربي، واقتسامه من جديد، ووقوعه تحت وطأة الاحتلال والموت الحضاري.

وقد عاش الشاعر عصر الثورة العربية الكبرى، حيث حمل أبناء الوطن راية النضال ضد الاستعمار، مطالبين بحريتهم واستقلال بلادهم، فأنشد الشاعر لكل هذه الآلام، ولكل هذا الانبعاث الثوري.

«وما عرف سورية شاعراً برأ بوطنه، متعلقاً به، على توالي المحن، مثل خير الدين الزركلي، الشاعر الذي حمل قيثاره العزاء في ليالي الوطن السود، وغناه أبقى الغناء وأنقاه، فما ناب «سورية» خطباً ولا أمت بالسوريين ملمة، إلا مسح بأطراف قلبه مواجع المنكوبين ومدامع المعذبين، فهو شاعر الوطن في جهاده ومآسيه، وشعره البلسم الشافي لآلام الصابرين، وجراحات المجاهدين.

وخير الدين، لم يسطع نجمه، ولم يَزكُ شعره، إلا حينما نزلت بوطنه النكبات عقب الحرب العالمية الأولى، وعقب معركة «ميسلون» التي نشبت بين السوريين بقيادة وزير الدفاع في عهد الملك «فيصل الأول» القائد البطل «يوسف العظمة»، والفرنسيين بقيادة الجنرال «غورو»، ولم يكن هناك تكافؤ بين الحق والباطل، فدخل الفرنسيون «دمشق» وأطاحوا باستقلال «سورية» في اليوم الرابع والعشرين من تموز سنة ألف وتسعمئة وعشرين ميلادية، بعد أن استشهد كثير من المواطنين الأبرار، الذين صبغوا تراب «ميسلون» بدمائهم دفاعاً عن الوطن، فدُفِنوا إلى جانب مرقد الوزير الشهيد.

هذا هو يوم «ميسلون» العظيم الذي أصبح على كَرِّ الأيام عيداً للشهداء في مراحل الجهاد، وهذا هو اليوم الذي زاد في قيثاره الشاعر وتراً جديداً ينبض بحب الوطن، ويخفق بالذود عنه.

لهذا اليوم، يوم ميسلون، فضل على الوطن، لأنه دفع بنيه إلى الجهاد ليموتوا كراماً كما عاشوا كراماً، كما أن لهذا اليوم فضلاً على الأدب، لأنه استثار كبرياءه، فهبّ يذكي حماسة السوريين، ويُنهض همهم، ويوقظ عزائمهم، ويحملهم حملاً على مواثبة المستعمر الغاصب، الذي سلبهم حريتهم، وهي أشرف ما يعتزون به ويفخرون.

ويأبى القدر إلا أن يضطلع خير الدين بآلام الوطن وأرزائه، وأن يكون وحده الشاعر الذي تألم قلبه لينقى، وعاش شعره ليبقى، وهكذا فقد غادر مدينة «دمشق» خلصة في ليلة (٢٤ تموم ١٩٢٠) بعد أن دخلها الفرنسيون، ميمماً شطر القاهرة، كما غادر الوطن الصفوة المختارة من أبنائه، فقرر المجلس العسكري التابع للفرقة الثالثة من الجيش الفرنسي في الشرق، والمنعقد في «دمشق» في (٩ أغسطس ١٩٢٠) الحكم بالإعدام غيابياً على خير الدين ومصادرة أملاكه، لأنه جاهر بعداء الفرنسيين في جريدته التي يصدرها في

«دمشق» باسم «المفيد»، ولأنه نعتهم بالغدر والخيانة، ودعا السوريين إلى مقاومة هؤلاء الجناة على استقلال سورية، الذين قتلوا حريتها، ووأدوا نهضتها، وعاقوها عن السير في سبيل الحياة، وبذروا في قلوب بنبيها البغضاء وطاردوا من شاء لهم الهوى أن يطارده من شبابها الأحرار.

على أن خير الدين لم يرهبه الحكم عليه بالإعدام، ولم تفزعه مصادرة أملاكه، لأنه يعلم حق العلم، أن للوهم صولة، وتضمحل، ولإرهاب دولة، وتزول، وأن الرجل الذي ألف رؤية المشانق أربع سنوات متواليات، وصلب عليها من إخوانه وأخذانه العدد الكثير، لم يعد حكم الإعدام مما يخيفه، فليتمس محتلو سورية طريقة ثانية لبثّ الرعب في الأفئدة، وإماتة الشعور في النفوس، وقتل الإيمان الوطني في القلوب، ليلتمسوا أسلوباً آخر، لا يصيب الأجسام، فإنها ذرات تفترق وتجتمع، ولكن يصيب الأرواح فإن فيها المقاتل، وهيئات، عبثاً يحاولون، وسدى ما يعملون^(١).

ويمجد الشاعر شعبه المناضل الذي عرف الحياة، فسلك إليها سبيلها، فما من غالب ومغلوب، وما من منتصر ومنكسر، وإنما الغلبة في النهاية للذي يسقط ويذل ولا يعرف كيف ينهض:

في نمة الأجيال نهضة أمة	أودى بها التهويل والتهديد
وثقت بعهد الأقوياء فأسلمت	هيات ما للأقوياء عهد
ما سجل التاريخ عبرة وأدها	إلا لينهض في الغد المؤود
والشعب إن عرف الحياة فما له	عن درك أسباب الحياة محيد ^(٢)

(١) علم الأعلام – ص ٢٥٩. من كلمة لأنور العطار.

(٢) الزركلي، الديوان ص ١١٨.

«وأفاق الناس في سورية، أو الجيل الجديد فيها، على اسم <خير الدين الزركلي>... إن الكثيرين فيهم لا يعرفونه صاحب هذا الاسم، ولكنهم يرددونه مع أشعاره التي قرؤوها، أنشدوها فيما بين الأيدي، وتحت الأعين من المجلدات والصحف... وأين يقيم هذا الرجل، الشاعر الذي قال في دمشق وفي الحنين إليها والوفاء لها، وفي جهادها القومي البطل، ما لم يقله كثير من الشعراء؟... هل ضاق به بلدٌ أحبّه فما استطاع مقاماً فيه، وغادره، وإلى أين؟.. لكن هذا البلد لم يعرف عنه، في كل تاريخه إلا أنه الوفيّ للأوفياء المحبّ لمحبيّه من أبنائه.

إن خير الدين الزركلي، الذي حمل شعره الوطني الثائر سلاحاً ماضياً في سبيل حرية بلاده واستقلالها لا يقدر أن يعيش تحت هذه السماء، وفوق هذه الأرض، ما دام الذي حكموا عليه بالإعدام، مرتين اثنتين، الأولى في العام ألف وتسعمئة وعشرين، والثانية في العام ألف وتسعمئة وخمسة وعشرين، هم الذين يحتلون ويحكمون...

وكيف يعود شاعر الشام إلى الشام، وقصائده القومية عناوين وكتب ونداءات، تغلي حماسة ووطنية في أفئدة الأجيال العربية التي تتصاعد في أرض هذا الوطن، في المدارس الحكومية والخاصة، وفي الليالي الدمشقية، الطويلة، الساهرة مع الشعر والفكر، وتقدير الشاعر النازح، والبكاء لبكائه»⁽¹⁾.
وتزاحمت غزوات المستعمرين والمحتلين فوق تراب هذا الوطن، لينهبوا خيراته، ويستغلّوا قدراته وإنسانه، ويرى الشاعر، أنهم لم يدخلوه مساعدين وآخذين بيده - كما زعموا - نحو طريق التقدم والحضارة، بل دخلوه ليعيقوا حضارته، ويسرقوا تراثه، ويبدّدوا الآمال التي كانت معقودة على أقوالهم، وأقوال غيرهم من الذين تعاونوا مع الاستعمار، حتى أصبح

(1) جريدة تشرين - ١٩٧٧/٢/١٠ - الأستاذ سعيد جزائري.

المواطن يودّ لو يفرّ من ظلم الغازين والقائمين على الحكم، الذين يرتضون بما يأمر به المستعمر .

وإذا تفرّق أبناء الوطن، وتشنت قوتهم، وتعدّدت أهدافهم، فمن أين لهم أن يصونوا سُمُوّ علم بلادهم، الذي هو بحاجة إلى قومٍ مدافعين منافحين عنه وعن الأرض التي يرتفع فوقها؟

وطنٌ تزامحت الخطوب ببابه وجفاه منْ عُقدتْ بهم آماله
أنى أَنْخَتَ رأيتْ أهبة مزمع هجران موطنه تُشدُّ رحاله
هل ينفع العَلَمَ المنيفَ، حُماته ناؤون عنه مُشتتون، وآله
إن اللّواء إذا علاك فإنّما يحميه ظلّك لا تقيك ظلاله^(١)

ويكي الشاعر على دياره التي أصيبت بالدمار، بعد أن كانت عامرة جميلة، وبعد أن كان العزّ يدرج في ربوعها، ويحلّق في سماءها، هذا العزّ الذي بناه العرب بالنضال والكفاح والمثابرة، لكنّه اليوم يتهاوى، وتتهدّ أركانه، وتضعف نفوس حُماته، الذين سيتحوّل مجدهم إلى حُلم، كان، وزال .

إن الناس يحافظون على المجد، ويعملون دائبين لرفعه دائماً إلى الأعلى والأفضل. لكن أمته، تعاورتها الأيام والويلات، والنفوس الضعيفة والخبیثة، وتركت كل شيء ينهار أمام الاقتحام الاستعماري الحديث. وها هم أعداء العرب، أو الغزاة لوطن العرب، يبذلون كل ما يستطيعون من أجل بناء حضارتهم ودولتهم، ويعملون على هدم حضارة العرب التي اقتبسوا منها حضارتهم وشمسهم:

ضاعت بلادي، يا زمان الصغار!

والاندثار!

(١) الزركلي، الديوان ص ٢٢٨ .

الناس بينون، وما في الديار،

غير الدمار!

أما ترى الغرب تعلّى وطار

فوق البحار

وأمتي هاوية، في انحدار!

بئس القرار!^(١)

وشعور الألم الذي يعانيه الشاعر، هو شعور مشترك مع أبناء الوطن . فهو يرصد لنا صورة الفتاة العربية المسلمة البائسة من وضع العرب، والقلقة على المستقبل العربي .

ولذلك فهي تندب أيام الحضارة العربية والفتوحات العربية، وأيام المجد والفخار التي سطرها أبناء العرب في العصور الماضية، لكن الدهر أنشب أظفاره وكشر عن أنيابه، وفتك بالقوة العربية والتوحد العربي، فحلت التفرقة، وسادت الفوضى، وعمّ الاضطراب والذل، وراح الشاعر من جديد يبكي عصر رجالات الدولة العربية، الذين قادوا الأمة من فخر إلى فخر ومن نصر إلى نصر، ومن تضحية وصمود إلى مجد وحضارة:

يا فتاة الإسلام حسبك شجواً ونواحاً. وأنت بالشجو أحرى
إنما تنديين عزاً تولى وبناءً من العلى مُشمخراً
عبث الدهر في ذويك فحلت بهم الموبات دُهماً وغُبرا
أين عهد «الفاروق» و«ابن أبي سفيان» غال الشيخين ما غال «عمراً»^(٢)

(١) نفسه ص ٣٥ .

(٢) نفسه ص ٢٢٠ .

والشاعر لا يقف من الأحداث موقف الواصف المُعاني فقط، بل يتعدّى ذلك إلى موقف المُناجح المُلهب للشعوب الوطني والثورة على المستعمر والتدخّل الأجنبي في شؤون وطنه، فيطلب من أبناء أمته أن يشدّوا عزائمهم ويوحّدوا صفوفهم، ويقدموا التضحيات في سبيل كرامة الأمة وتحقيق أمانها، لأن المستعمر قد استباح البلاد وأذل النفوس، فهل ينتظر الشعب العربي هواناً فوق كل هذا الهوان الذي أصابه؟ وهل يشيد الإذعان والخوف والضعف مجدّاً؟ أو يبني حضارة؟ أو يرفع مكانة لإنسان؟

يا راقدين على الهوان تأهبوا
هذي بلادكم تُباح، ودوركم
من خال أن المجد يُدرك هيناً
ما شاد ملكاً أو أعزّ قبيلة
وتجلببوا الأدرع والأكفّات
تجتاح، فابغوا غيرها أوطاناً!
فلينتظر بعد الهوان هواناً
من أثر الإخلاء والإذعانا^(١)

كما تناول الشاعر أمراض الزعماء العرب، وأخذ عليهم شقاقهم وتفرقهم، وبرم بهذه الحال، فقال:

ولم أرَ قبل العرب في الناس
تُرَجّي فلاحاً والشقاق حليفها
وما برزت في عالم الله أمة
أتصحو، ومن خمر النُّكوب
سواء عليها خسرُها ورباحها
وكيف يُرَجّي في الشقاق فلاحها
ولا كان إلا بالوفاق نجاحها
ومن سكرات النائبات

«ولعل هذه الصيحة أيقظت كثيرين، ونبهت راقدين، وأفهمت الشعب العربي أن الداء مبعثه هؤلاء الحكام الين كانوا يتقاسمون الحكم، ويتنافسون من أجله، لا يعبتون بما يعدّ الأجنبي وما يفعل، فهو على الحدود، وله عين

(١) نفسه ص ٢٤ .

(٢) نفسه ص ١٥٤ .

في كل قصر من قصور الحكم والإمارة، تكاد تسير الأمور بمشيئة الغرب وهو لا بمشيئة الشعب وأمانيه»^(١).

ولعل ما يدمي قلب الشاعر، ويجعله يطلق زفراته وآهاته هو الانقسام العربي، والانشقاق في الصفوف، الذي يتبعه موت للأماني والأهداف، وتحقيق لمطامح المستعمرين.

والشاعر إذ يتحدث عن ذلك، فهو إنما ينبئ بشرّ العواقب، وسوء ما آلت إليه حالة العرب من الضعف وتباعد القلوب، وكثرة الخصومات والمشاحنات التي تعطي نتيجة إيجابية لأعداء الأمة:

وما شكواي أو شكواك إلا نفوضى في المجامع وانقسام
ترى كلاً له أمل وسعي وما لاثنين حولك من وئام
وأحزاباً إذا التأمت فليست تدور بها الأمور على التئام
وتجتمع الجسوم على تراضٍ فتفترق القلوب على خصام^(٢)

إذاً: فالجميع ينشدون الأماني والآمال، لكنهم بعيدون عن الألفة والمحبة، وهم إن اجتمعوا بأجسامهم، فإن قلوبهم متنافرة وغير صافية وخالصة الود. فأصبح الوطن في عيني الشاعر أشبه بالسجن أو القبر، وأدرك أن حالة القوم تشبه حالة الموتى، فلا حياة ولا عزّة، ولا لقاء.

ويحتل الألم الفلسطيني مساحة واسعة من قلب الشاعر، فيوم «اقترح برنادوت إنشاء دولتين متحدتين على أساس شرقي الأردن و«دولة إسرائيل» مصوراً ذلك بصورة تحالف بين الدولتين» وكان ذلك عام ١٩٤٨، نهض الشاعر مدافعاً وموضحاً الحق الفلسطيني في فلسطين، ومهاجماً هذا

(١) الدهان، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٧.

(٢) الزركلي، الديوان ص ٣٢٦.

المشروع، بأنه سلبٌ للحق العربي، وانتقاص لكرامة شعب بني دولته، ودافع عنها بكل ما يملك، وإن من الظلم والوحشية أن يُهجّر الشعب الفلسطيني من أرضه، ويُشرّد في شتى الأصقاع ويمضغ مرارة الظلم والتشرد طوال مراحل حياته، ومراحل بقاء الاحتلال الإسرائيلي لأرضه:

أُتسلبُ أمةً ووطناً عزيزاً بنته على الجماجم لا الرُّغام
وتُذفها تهيم بكلِّ وادٍ تُطوّف في السباسب والمرامي
تتأم وتستفيق على جراحٍ نواغلٍ في أضالعها دوامي^(١)

ويبيّن الشاعر موقفه من الاعتداء والحروب، فالحرب عنده ليست لغير الدمار والخراب والويلات والكوارث:

هي الحرب كانت للدمار ولم تنزل مثار خطوب تبعث الضنك والعُدما^(٢)

والحروب ليست إلا من صنع الناس الأشرار الذين يرغبون في إفناء البشرية والاعتداء على حرمتها. وفي الوقت ذاته يقابل الشاعر هذا المفهوم، بمفهوم السلام، الذي يعني الخلود إلى الأمن والطمأنينة. ويرى أن الذين تحدّثوا في السلام، ونادوا به، إنما أرادوا بذلك بناءً إنسانياً حضارياً، شامخاً، أو لعله يقصد مبنى مجلس الأمن الدولي:

سلامٌ على قصر السلام وآله سلام على من شيّدوا ذلك الفخما
رجالٌ بنوه يبتغون به الهدى وأعظم به ناساً وأكرم بهم قوماً^(٣)

ويعيش الشاعر آلام أهله ووطنه في الشام، يوم اشتعلت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥، حيث بدأت في جبل العرب، ثم تعددت ميادينها حتى كادت

(١) نفسه ص ٢٨٣ .

(٢) نفسه ص ١٧٨ .

(٣) نفسه ص ١٧٨ .

تشمل القطر بكامله. ونتيجة لاشتداد لهيب المعركة ومهاجمة الثوار مكان المندوب السامي الفرنسي في قصر العظم، أمر هذا المندوب ضرب دمشق بالمدافع والطائرات، فنشبت فيها الحرائق، وتهدمت الدور والقصور، ولم يوقف الفرنسيون قصف المدينة إلا بعد أن فرضوا على أهلها غرامة كبيرة، إلا أن الثوار تابعوا معاركهم بمختلف المناطق، وقنموا الضحايا بغير حساب في سبيل الذود عن حياض الوطن وتوفير الحياة الحرّة الكريمة فيه:

الأهل أهلي والديار ديارِي وشعار وادي النيربين شعاري^(١)
 ما كان من ألم بجلّق نازلِ واري الزناد فَرَزْدُهُ بي واري
 إنَّ الدّمَّ المهراق في جنباتها لدمي وإنّ شفارها لشفاري
 دمعي لما مُنيت به جارِ هُنا ودمي هُناك على تراها جاري^(٢)

ويرسم الشاعر صورة النيران التي أهدقت بدمشق، وانسابت في الأحياء، فأصابت الطفل والشيخ والفتاة، وغدا الناس يترقبون الموت في الغدو والآصال. والثوار السوريون يقومون بالدفاع، والقتال، حتى أعاد الزركلي إلى الذاكرة يوم ذي قار، وربط بطولات الماضي بالحاضر:

إن أنصفت أيام «ذي قار»، لنا سلفاً، فنحن اليوم في «ذي قار»
 طارت بألباب الفرنجة صيحة في الشام، فاندفعوا إلى الأسوار
 وعدوا على الأطفال في حُجراتها والمطفلات، وهنّ في الأخدار
 عمّوا بمضطرب القذائف كلّ ذي ضعف، وخصّوا كلّ ذات إزار
 ستروا بضرب الآمنين فرارهم فاعجب لعارِ ستّروه بعار^(٣)

(١) وادي النيربين: موضع فيه بساتين ورياض، كان مدخل دمشق للقادم من غربيها.

(٢) الزركلي، الديوان ص ٢١٠.

(٣) نفسه ص ٢١٢.

ويقول الدكتور سامي الدهان^(١):

الكارثة حلت بالشام، ودخل الفرنسيون أرضها سنة ١٩٢٠ غدرًا وغيلة، وأعملوا في بقية الجيش العربي بها قتلاً وفتكاً، وسقط وزير الحربية العربي، فسورّ خير الدين الزركلي هذه الفاجعة وسقوط «ميسلون» بشعر رائع، لا نكاد نجد له مثيلاً في شعر الشام، بل يكاد ينفرد بروعته وبيانه لوصفه تلك الساعات الحرجة من حياة أمة صغيرة، مدّت يدها إلى الحلفاء صادقة، فأعطوها الموائيق باليمين، ورموها بالنار بالشمال، ففضّلت الموت على الحياة، وسقط أبنائها في المعركة ليسقوا الأرض من نجيعهم الطاهر، وليشهدوا العالم أجمع على غدر الحلفاء، وليمكنوا قومهم من المطالبة بحق الوطن، فقد استبيح حماه حرباً، ولم يستسلم، وكانت دماؤهم وأشلائهم الوثيقة الفدّة التي أنقذت الوطن من براثن الانتداب فيما بعد.

قال الشاعر يصف المعركة الحربية غير المتكافئة وصفاً بليغاً أرسله من قرارة نفسه دمعاً وأسى وحرقة، وتدقق به على الغادرين حقداً ونيراناً:

الله للحدثان كيف تكيد بردى يفيض «وقاسيون» يמיד

ثم قال:

لهفي على وطن يجوس خلاله شُذاذُ آفاقِ شرانم سود

أبرابرُ السّنغالِ تسلب أمتي وطني، ولا يتصدّع الجلمود...؟

شرّ البليّة والبلايا جمّة أن تستبيح حمى الكرام عبيد^(٢)

وقد تصوّر الشاعر عظم الكارثة، فجعل بردى يفيض ماؤه، وجبل «قاسيون» يמיד لهولها. فالوطن العربي يجوس أرضه شرانم سود من

(١) الدهان، سامي، مرجع سبق ذكره ص ١٥٤.

(٢) الزركلي، الديوان ص ١١٦.

السنغال، يسلبون العزّة، ويختلسون الاستقلال، وهذه شرّ بليّة يُصاب بها وطن، حين يهبّ المستعبدون لنصرة المستعمرين في سلب وطن آخر...

ثم وصف المعركة نفسها فبلغ الذروة في تصويرها حين قال:

غلت المراحل فاستشاطت أمّة عربية غضباً وثار رقود
زحفت تذود عن الديار وما لها من قوّة فعجبت كيف تذود
الطائرات محوّمات حولها والزاحفات صراعهنّ شديد
ولقد شهدتُ جموعها وثّابة لو كان يُدفع بالصدور حديد^(١)

واستطاع الشاعر أن يستحضر صور الزاحفات والطائرات وهي جديدة في شعرنا. جديدة في حياتنا، ورسم المعركة كأنه يراها، ورسم لوحة لها ما تزال أصدق لوحة في وصف معركة ميسلون، في الشعر السوري المعاصر، على الرغم من قصورها عن بلوغ التفاصيل، ووقوفها عند حدّ الألفاظ والمسميات، ولكنها على كل حال وحدها في هذا الميدان الأدبي، لم تقع على مثلها لغيره من الشعراء.

وتابع الشاعر في وصف الجنّة، ووقع نكبتهم على أهل الشام، فقد سقطوا على البلاد كما يسقط البوم والجراد، وعمد إلى مناجاة الحمام وهو في الغمّ والأسى... وأبلغ التحية وهو عن دمشق بعيد، منفي يعيش في مصر، ويتحسّر على وطنه وبيوت أهله، ويتمنّى أن يعود إليها وهي في أجمل عيش وأنضر سعادة، ولكنه هجرها بعيداً عن الهوان، فقال:

نذروا دمي حنقاً عليّ وفاتهم أنّ الشقي بما لقيت سعيد
الله شاء لي الحياة وحاولوا ما لم يشأ ولحكمه التأييد^(٢)

(١) نفسه ص ١١٧.

(٢) نفسه ص ١١٨.

وفي هذا إشارة إلى حكم الفرنسيين عليه بالإعدام غيابياً، ولكنه سخر منهم، فعاش معزّزاً مكرّماً، وهم نزحوا عن بلاده يجلّهم العار، ويزدريهم الشعراء، ويسخر منهم التاريخ. وناجى الحمامة ثانية، فحملها أساه وشكى إليها بلواه، ونذر دمه لأهله ووطنه في قصيدة سائرة كذلك:

عصفورة «النيربين» غني واروي حديث الأئين عني
أنا المعنى وما المعنى غير حنين أذاب مني
شغاف قلبي وحسن ظني^(١)

والأبيات موسيقية اللفظ، بحترية التركيب، تكاد تغنى، سار بها الشاعر على سجع الحمام، فلَقّن طيور بلاده أغاني قلبه، وأنشيد روحه الفلقة المعذبة في سبيل أمته ووطنه، فهو في الشعراء الرومانتيكيين.

ولكن الشاعر يظلّ مفعماً بالأمل الكبير، متوسّماً في شعبه ووطنه كل آيات الثورة والنضال، حتى يتحقق النصر والاستقلال:

إن في الشام أمة لا تطيق الضيم، تأبى لها العُلا أن تطيقا
أذرونا بالموت، ما أعذب الموت إذا كان للحياة طريقاً^(٢)

ويحثّ أحياناً على سلوك طريق الموت، عندما تتزاحم الخطوب، لأنه الطريق الوحيدة التي توصل إمّا إلى الحياة الحرّة الكريمة، وإمّا إلى الهلاك الذي هو أفضل من البقاء والعيش تحت وطأة الذل والظلم، فالإنسان الحرّ المناضل لا يقبل المهانة والخنوع، وإذا ارتضى بذلك إنسان، فإنما هو ضعيف خامل:

خطوب الدهر أيسرها المنونُ وحبّ العيش في نكدٍ جُتونُ
وصبر الحرّ والأحداث تحبو إليه صروفها عجزٌ وهون^(٣)

(١) نفسه ص ٩٣.

(٢) نفسه ص ١٧٣.

(٣) نفسه ص ١١٤.

الدعوة للثورة والتبشير بالمستقبل العربي

للغرب في تاريخهم القديم ثلاث نهضات بارزة. الأولى دينية مهدها الحجاز، وقد بلغت أوجها بظهور الإسلام وانتشاره، في قسم كبير من المعمورة. والثانية قومية، وليس بالهين فصلها عن الأولى، على أنها تبرز بشكل خاص في العهد الأموي ففيه كانت للعرب سلطنة عظيمة الشأن تمتد من حدود الهند إلى الأندلس. وكان العرب فيها أهل الإدارة والسلطان، بسيوهم تحاط الدولة، وإلى خزائنهم تجبى الأموال.

وأما النهضة الثالثة فعلمية لغوية، وقد بدأت بالنمو منذ ظهور الإسلام وما زالت حتى بلغت عصرها الذهبي في بغداد وبعض الحواضر الأخرى. ويُراد بها ما قامت به اللغة العربية يومئذ من نقل العلوم القديمة والتوسع فيها وما عُرف من ازدهار معارفها وآدابها.

ومن المعلوم أن العرب فقدوا بعد الأمويين مقامهم السياسي الممتاز في الشرق، وأخذوا بعد العصر العباسي الأول بالتراجع أمام سائر العناصر، ولم يلبثوا في الشرق عقب انحلال الخلافتين العباسية والفاطمية، أن دخلوا في حكم الدول الأعجمية. وآخر هذه الدول السلطنة العثمانية التي يمتد حكمها عليهم من سنة ١٥١٦م إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨.

ولا نرى قبل القرن التاسع عشر ما يشير إلى يقظة قومية للعرب، فقد كانت قوميتهم في سبات عميق. وأول من حاول إيقاظها هو محمد علي الكبير

أو قُلُّ ابنه إبراهيم باشا، وكان على ما يبدو ينوي إنشاء دولة عربية مركزها القاهرة، لكن مشروعه لم يتم. ولا يظهر أن البلدان العربية التي نُورخ أدبها الحديث (مصر وسورية والعراق) تأثرت يومئذٍ تأثراً جدياً بهذا المشروع، أو وسَّعت لتحقيقه على أن البذرة وضعت في الأرض، وترك للزمان إنباتها.

بقي الحال كذلك إلى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وكانت مصر قد استقلَّت بشؤونها الداخلية عن الدولة العثمانية والنهضة العلمية قد بدأت في سورية ولبنان بتنشيط بعض أعلام الحكام كراشد باشا ومدحت باشا وأضرابهما، فتهياً من كل ذلك بواعث لحركة أدبية تعبّر عن أحلام العرب وخواجهم القومية^(١).

وكان شاعرنا خير الدين الزركلي، واحداً من الشعراء الذين قدّموا مجموعة من القصائد التي كان لها الأثر الكبير في تحضير الأفكار، وإنكاء الروح القومية.

ويتعجب من قبول أبناء العرب الذل والمهانة، ويتساءل عما إذا كان هذا المورد قد عذّب لهم؟ أم أنه كان حلو المذاق نتيجة ما ذاقته النفوس من هوان على مرّ الأيام؟

ويمتدح الشاعر أبناء قومه، ويذكر لهم بعض صفاتهم كحمية الجار والمحافظة على العهود، والإباء والرجولة، ويطلب منهم أن يكسروا أطواق الذل، ويشحذوا همهم التي لم تشحذ منذ زمن طويل، وأن يبتعدوا كثيراً عن القول دون الفعل:

سائلِ الأَقْوَامَ حيناً بعد حين مالرهِطِ هاجِ رهِطِ المصلحينِ
سألهم هل عذّبَ الذلُّ لهم أم حلا عندهم مرّ السنينِ

(١) أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي ص ١٠٢.

يا حماة الجار أحلاف الهدى يا رجال العرب آساد العرين
نبهوا العزم فقد طال الونى ليس يجدي اليوم قول القائلين^(١)

ويحث الشاعر أبناء قومه في الشام على النهوض، بعد أن دخلها الفرنسيون، فشاهد ألسنة الثورة قد هدأت والمقل قد غفّت، فأراد أن يدفعهم إلى الثورة، معللاً لهم عدم غسل العار بغير السيف، ويطلب منهم أن يشمروا عن ساعد الجد والعمل والكفاح، وأن يبتعدوا عن الخطابات اللسانية دون تحقيق هدف أو أمل، وأن ينزلوا إلى ساحة القتال لأنها الوحيدة التي يبرهن الإنسان فيها على صلاحيته للحياة الكريمة.

انهضوا يا نيام يا رجال الشام
ليس إلا الحُسام جالياً للعار
شمروا الذراع، واكسروا اليراع حومة القراع، قبلة الكرار^(٢)

وكان الناس، في سورية، يتلقفون هذه القصائد سرّاً، وسرعان ما يستظهرها الشباب والشيوخ، ويرددونها في مجتمعاتهم الخاصة كنفثة من نفثات شاعر حرّ، نزع عن وطنه في أفسى الظروف، وحكم عليه بالإعدام بعد أن احتلّ الإفرتسي بلاده، وكانت نفثاته الحرة تعبيراً صادقاً عن شعورهم الوطني المكبوت^(٣).

ولذلك كان يتصور أن بلاده قد انتشر فيها الظلم والفقر والشقاء، وأن النفوس قد استوطنت على هذه الأمور وقبلت بها، حيث كان هذا بعد وقعة ميسلون.

وهو يرى أن هذا الضعف والهوان هو الذي سيسبب لهم العذاب والحزن والألم، وهو الذي سيجعل النفوس قابلة بأذى الحقوق، ومتعلقة بأوهى

(١) الزركلي، الديوان ص ١٠٣.

(٢) نفسه ص ١١٥.

(٣) الكيالي، مرجع سبق ذكره ص ٢٥٩.

الآمال، على حين أن الحق يحتاج إلى العزائم الماضية، والزنود القوية، لأن الحق هو المنتصر دائماً:

بَلَدٌ تَبَوَّأَهُ الشَّقَاءُ فَكَلَّمَا قَدُمُ اسْتِقَامَ لَهُ بِهِ تَجْدِيدُ
لَانَتْ عَرِيكَةَ قَاطِنِيهِ وَمَا دَرَوَا أَنْ الضَّعِيفَ مُعَذِّبٌ مَنَكُودُ
لَمَسُوا حِبَالَ حُقُوقِهِمْ وَتَعَلَّقُوا فِي الْحَقِّ يُعَوِّزُهُ قَنَاءٌ وَبُنُودُ
مَا تَنْفَعُ الْحُجَجَ الضَّعِيفَ وَإِنَّمَا حَقُّ الْقَوِيِّ مُعَزِّزٌ مُعْضُودُ^(١)

ويقرّع الشاعر بالوعود الكاذبة الخادعة التي أضلت العرب وأساعت إلى الشام، وهدّد بالسيوف العربية، وعاج إلى الحماسة، يُنكي بها الأفئدة والقلوب، ويدعو إلى الحرب والقتال، إذ لا ناطق حقّ عنده سوى السيّف، كما يدعو قومه إلى عدم الاستسلام، وعدم نسيان الحق بعد أن أصابهم الخير والنعيم، ولا أظنه يقصد في هذه النقطة سوى الحكام الذين وصلوا إلى السلطة:

يَا نَابِضاً فِيهِ عَرَقٌ مِنْ بَنِي مُضَرَ أَسْرَجَ جِيادَكَ وَتَطَلَّقَ لَهَا اللَّجَمُ
وَاشْهَدْ غِرَارِكَ لَا يَعْطِقُ بِهَا صَدَأُ فَإِنْ يَجْرُ حَكَمٌ فَالْصَّارِمُ الْحَكْمُ
كَفَكَفَ دَمُوعَ فِلَسْطِينَ وَجَارَتِهَا بِيْرُوتَ، وَاكْفُفْ يَدًا فِي بَسْطِهَا
بَنِي أَبِي يَا وَقَاكُمُ كُلَّ عَادِيَةٍ مَنْ بَيْتُهُ الْكَعْبَةُ الْحَمَسَاءُ وَالْحَرَمُ
تَأْهَبُوا لِقَرَاةِ الطَّامِعِينَ بِكُمْ وَلَا تَغْرُكُمُ الْآلَاءُ وَالنَّعَمُ^(٢)

فهو يطلب إلى العرب أن يشحذوا السيوف، وأن يسرجوا الخيول، وأن يتأهبوا لقراءة الطامعين الغادرين. وفي هذا الشعر صورة للشعر الحماسي القديم في معانيه وفي مبانيه، يتخذ السيوف والخيول واسطة للقتال، ويستعمل الصور

(١) الزركلي، الديوان ص ١١٦.

(٢) نفسه ص ١٢٦.

الشعرية في استنفار القبائل، وفي إثارة الحمية والنخوة. فهو يفكر ويدعو ويهب على صيحات الشعر العربي القديم، لا يجد له غيره ركوباً ولا طريقاً^(١).

ودعوة الشاعر إلى الثورة والتأهب، موجهة إلى أبناء يعرب جميعاً، فهو يحثهم لذلك، من أجل طرد الأجنبي المحتل من بلادهم، حيث لا مكان له بينهم، وفوق أرضهم. فالأرض العربية كلها، الشام والعراق والحجاز واليمن وأرض الخليج والمغرب العربي كلها أرضه وبلاده ووطنه، وعليه أن يدافع عنها، ويضحي من أجلها، ويحميها، لأنها يجب أن تكون حرة عزيزة كريمة:

يَا بَنَ يَعْـرَبُ قُمْ تَاهَّـبِ
مَا لِأَجْنَبِي فِي الْحَمَى مَقْرُ

* * *

الشام والعراق والحجاز لك
واليمن المضحى إذا اشتدَّ الحالك
ونجدك الماضي الشبا وما مالك
كُلُّ مُهَيَّبٍ بِكَ أَنْ رَدَّ مِنْهَا ك^(٢)

ويطلب الشاعر من أبناء قومه، أن يسيروا إلى بناء مجدهم بكل همّة وإخلاص، نانزين النفوس لذلك كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، فلا بناء من دون جهد ولا حياة من غير تضحية، ولا نيران من غير أشواق ملتبهة وجمرٍ مضرم:

سيروا إلى مجدكم روحاً وأبدانا واسعوا إلى عزكم شيباً وشباناً
تُشَيِّدُوا ذِكْرَكُمْ، تَبْنُوا لَكُمْ شَاتَا شَأْنًا تَلُوحُ بِهِ كَوَاكِبِ السَّعْدِ^(٣)

(١) الدهان، سامي الشعراء الأعلام في سورية ص ١٥٤.

(٢) الزركلي، الديوان ص ٢٠٨.

(٣) نفسه ص ٣١٦

ويرجو الشاعر لكل بلاده العربية، أن تتحرّر من نير الاحتلال الأجنبي، ويحثّ أبناء قومه على التلاحم والتوحد من أجل طرد الدخلاء وتحقيق الحرية والاستقلال، ويبيّن لهم أن طلب الحياة ليس أمراً سهلاً، بل هو طريق وعرة تحتاج إلى جلال وصبر وتضحية وإقدام:

أنقذوا مصر بالقواضب والشرع - والواريات يلفظن جمراً
وادفعوا الشر عن مناكب بغداد - فإن العراق أوجس شراً
طهروا الأرض من رمام العوادي واجعلوا اليم للعادة مقراً
ما منال الحياة بالمطلب السهل - ونهج الحياة ما زال وعراً... (١)

وبالرغم من كل ما يعانيه الوطن من اختناقات، وما يلاحظه الشاعر من ركود وموات وقبول بالوضع القائم في البلاد، لكنه متفائل بأجيال وطنه، فهو يتوسّم فيهم الخير والهمة والثورة، وسيرى العالم عمّا قريب من هم أبناء هذا الوطن عندما يثورون؟ وكيف سيبدّدون كل ما يحيط بهم من حُجُب وغيوم؟

فهم أهل النخوة والحمية، الأباة الكرام، الذين يتسابقون إلى الأمجاد، وعندئذ، يبرهنون على أصالتهم وعروبتهم، ويكبر الأمل في قلب الشاعر عندما يسعون إلى المجد، مرخصين النفوس، فهم الذين يطلبون العلياء منذ صغرهم، ويسعون إلى تحقيق الأمجاد والمكرمات والآمال، عندما تكبر أحلام الوطن في نفوسهم، وتشتدّ سواعده:

وقل لمن زعموا في العُرب ما وما يقيمون عند القول برهاننا
سيعلم الناس من آل الشّام ومن أبناء مصر، ومن قُطانُ بغداننا

(١) نفسه ص ٢٢١.

سينجلي الغيـهـب المـقـتـم عن زمرِ
بيض الوجوه لهم في كل مكرمة
أولئك القوم آلي، أبتغي بهم
أنعم بأشبال قحطان الألى نهضوا
حنوا إلى المجد ولداناً فما لبثوا
أن يمّموا سبيل العلياء فتياناً^(١)
يرون في ربح أهل الحرص
يدٌ قد انبسطت سرّاً وإعلاناً
سعيّاً إلى المجد، أرواحاً وأبداناً
إلى العلاء زرافاتٍ ووحدانا

ويفتخر الشاعر بأبطال شعبه يوم قيام الثورة السورية الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي، هؤلاء الفرنسان الذين ثاروا على المغتصب غير مكترثين بما يلاقونه من ظلم وضرب وسجن ونفي، إنهم يتسارعون إلى خنادق الثورة، ويلهبون أوارها في المناطق كلها رافضين الذل والخنوع وانحناء الرقاب، راغبين في حصد غصّات القلوب والنفوس:

انظر إلى القوم لا حولٌ ولا عَضُدٌ
ثاروا على البغي ما هابوا ولا
أباة ضيمٍ، مقاديم إذا استعرت
نظى نضالٍ، مناجيد، مساريع
سيموا الأداة، فلم يحنوا رقابهم
ذُلّاً، ولا استسلموا والأتف

ويوم كان الجنرال «غورو» عائداً من زيارة للفاعور بقرب مدينة القنيطرة، في سورية، ومعه حقي العظم (حاكم دمشق) وتصدى لهما بعض الوطنيين فأطلقوا عليهما الرصاص، وأصيب الجنرال في يده الخشبية، ودخلت رصاصة في عنق حقي فجرحته، وقتل مرافق عسكري كان مع الجنرال، وأشيع في عمان أن الجنرال قتل، أنشد شاعرنا، فقال:

يوم «الغورو» في قنيطرة
كان العقاب به لما اجترما

(١) نفسه ص ٢٦ .

(٢) نفسه ص ١٢٨ .

نهضت بأبناء الحمى هممٌ فدرعوا الإقدام والهمما
ما بال «حقي» غير معتبر بمصير صاحبه الذي ظلماً
سيرون أياماً محجلةً بيضاً لنا بخلوا بها الظلماً
إنّ النفوس إذا غلّى دمها ألماً شفت بزنادها الألماناً^(١)

ويصور الشاعر، أن النضال العربي قائم في البلاد كلها من أجل الحرية والاستقلال، وهيهات أن يقبل شعبه الذل والظلم، ويخضع للضيم:

في فلسطين وفي الشام رجالٌ — ونصالٌ
وبنجدٍ وبيغداد ليوثٌ — وغيوثٌ
وبصنعاء وهاتيك الهضابُ — أسدٌ غاب
والمقام، لا يُضام^(٢)

ويبين الشاعر إقدام المقاتل العربي يوم تكون المعركة ضارية، وعندما يحشد العدو جيوشه ليطبق بأفق البلاد، إنه المقاتل الفارس الذي لا يبالي بقاء الحروب وأبطالها، بل يغير ممشقاً سلاحه ودمه، طالباً الموت لتوهب له الحياة، وليكتب له المجد والخلود، ولبلادته الحرية والانتصار:

لسنا بنالي عدد العُداة ولا لقاء القادة الكُماة
نغير بالشرع والطبابة ونؤثر الموت على الحياة
دمُ الطلّى إلى العلى سبيل^(٣)

هكذا كان الشاعر مفجراً طاقات ألمه، حاثاً أبناء قومه على الثورة في وجه المستعمر، مفتخراً ببطولاتهم يوم يثورون لتحقيق الأماني والأهداف.

(١) نفسه ص ١٢٤ .

(٢) نفسه ص ١٤٨ .

(٣) نفسه ص ١٣٣ .

الشاعر ومفترق الموت العربي

والنهوض الجديد

تفتحت حياة شاعرنا الكبير، خير الدين الزركلي، في ظروف قاسية، كانت تحيط بأمته ووطنه، فوعى وأدرك المظالم والمجازر النازلة ببني قومه، فشمّر عن ساعديه، واستعد لمقاومتها، ودعا إلى الكفاح ومقارعة الاستعمار.

«كان خير الدين الزركلي رائداً من رواد النضال الأوائل، وقد عمل لأجل استقلال العرب من نير السيطرة العثمانية، يوم كانت الجمعيات العربية تعمل سراً، وكان أحرار العرب داخل البلاد وخارجها، يتنادون ويجتمعون، والشعب الذي طال رقاؤه يتململ ويستيقظ. كان ينتظر الثورة، هذه التي انطلقت شرارتها من الحجاز، فكنست العثمانيين من الديار العربية، وانفتحت المجالات للآمال العراض، لكن الوطن العربي الذي وثق بالحلفاء، سرعان ما غدر به الحلفاء، وكانت معاهدة سايكس بيكو خنجراً في الظهر، وصار على العرب أن يقاوموا المحتل فكانت معارك ميسلون، واختال الدخيل في شوارع دمشق على أشلاء الضحايا، ونهض الزركلي يهتف بالعرب»^(١):

فيم الونى وديار العرب تُقتسم أين العهود التي لم ترع والذمم
هل صحّ ما قيل من عهدٍ ومن عدةٍ وقد رأيت حقوق العرب تهتضم

(١) صحيفة الثورة - العدد (٤٢٤٠) - مقالة للدكتورة نجاح العطار.

ما بال بغداد لم تنبس بها شفة وما لبيروت لم يخفق بها علم
نَسْجُو على الضيم والأطماع حائمة ونكظم الغيظ والأكباد تضطرم^(١)

لقد كان الشاعر مناضلاً طليعياً تقدماً، فهو لا ينسى في آخر القصيدة أن يوجه خطابه إلى أبناء يعرب شاحداً همهم، لتنظيم أمرهم، وتوحيد كلمتهم، لقراع أعدائهم:

تأهبوا لقراع الطامعين بكم ولا تغرركم الآلاء والنعم
سيروا رويداً إلى تنظيم أمركم لا يصلح الأمر إلا حين ينتظم
وأقسموا لا افترقتم يوم ملحمة ولا ونيتم عساه يصدق القسم^(٢)

«ولعلّ هذه الدعوة إلى اجتماع الشمل واتحاد الكلمة، كانت أول صرخة من نوعها، ولاسيما إذا عرفنا أن القصيدة مؤرّخة — كما جاء في الديوان — عام ١٩١٩»^(٣).

وكان الشاعر مقرّعاً لسياسة الفرنسيين يوم عمدوا إلى تجزئة البلاد وإقامة دويلات كثيرة فيها: دمشق — حلب — اللاذقية — جبل الدروز — إسكندرونة — لبنان.

كل الزركلي، الديوان ذلك في سبيل تحقيق هدفين أساسيين:
أولهما: تغذية النزعات الانفصالية أو الطائفية وإضعاف الروح القومية والوطنية.

وثانيهما: عزل سورية الداخلية عن البحر وخنقها اقتصادياً، لكن الشعب العربي في سورية، قاوم التجزئة بكل الوسائل الممكنة لديه، فاضطرت فرنسا إلى التراجع والإعلان عن قيام دولة اتحادية تضمّ دمشق وحلب واللاذقية

(١) الزركلي، الديوان ص ١٢٥.

(٢) نفسه ص ١٢٦.

(٣) مريدن، عزيزة، حركات الشعر في العصر الحديث — ص ١٨٥.

بصلاحيات سورية ومظاهر ديمقراطية كاذبة، إلا أن الشعب تابع مقاومته، وقاطع انتخابات المجالس التمثيلية، وتراجعت فرنسا مرة ثانية، وأعلنت عن قيام دولة أكثر انسجاماً (بحسب تعبيرها) مؤلفة من دمشق وحلب (دولة سورية) ولكنها أخفقت في تهدئة النفوس وخداع الشعب، فاندلعت الثورات:

أدولة في دمشق ذات أنظمة ودولة في قويق أمرها جمل
ودولة في رُبى لبنان قائمة بين الكهوف يقبها العادي الجبل
تلكم لعمرى «روايات» ممثلة في كل يوم يرى منها لها

والشاعر ليس ناقماً وحاقدًا وثائراً على المستعمرين الذين احتلوا بلاده فقط؟ بل هو ثائر أيضاً، وحاقد على رجال من وطنه، تعاملوا مع الاستعمار، وتعاونوا معه، فقد كان الشاعر يرى فيهم بُناة لهذا الوطن، وسنداً له، ومضمدين لجراحه، وقادة لثواره! ولكن سرعان ما انقشعت الغيمة، وتكشفت نواياهم الخبيثة، فكشروا عن أنيابهم، وسددوا سهام الدمار والهلاك والموت لوطنهم، ولأبناء أمتهم، وانقلبت صلاة الوطن التي كانوا يقيمونها إلى ردة وإلحادٍ ونكران، وراحوا ينفذون مآربهم الشخصية ويسرقون خيرات الشعب والوطن، ويبنون لأنفسهم كياناً هامشياً، بعيداً عن أهداف الأمة:

ويلي على وطن يُهدمه من كُنْتُ أَمُلُ أن يُشيدَه
كم صائح: وطني! حسبت به كَشَّافَ غَمَّتَه، ومنجده
دارت به الأيام دورتها وارتعت حين رأيت مشهده!
أبصرته هدفاً له وطني والسَّهْم بين يديه، سدده
تخذ الولوع بحبّ موطنه شركاً له وبغى تصيده^(٢)

(١) الزركلي، الديوان ص ١٣٧.

(٢) نفسه ص ٣٣.

وعندما كانت أراضي الشعب العربي الفلسطيني تنتقل من الأيدي العربية إلى الأيدي اليهودية عن طريق التجار والسامسة والإقطاعيين وكبار الملاكين العرب، كان هذا الأمر يؤثر آثاراً سلبية في شعبنا الفلسطيني، ويفرض عليه الهجرة والتشرد والمضايقة، وبالتالي، كتابة مأساته المؤلمة، وقد صور الشاعر هؤلاء السامسة والتجار، متجردين من الشعور والإحساس الإنساني، حيث دفعتهم إلى ذلك أطماعهم الدنيئة، وارتباطاتهم الوثيقة مع أعدائهم الذين اشتروهم بالمال، ويتعجب الشاعر من هؤلاء الناس الذين يقبلون بدل أوطانهم حفنة من المال، سترزول بعد حين، لكن الوطن سيبقى مقيماً في القلب والعين والروح، إذ هو كذلك:

أرى ما لا يـصوِّره السَّماع	تقدّم خطوة وانظر فإنّي
وما النّبراس إن طُفئ الشّعاع	ضمانر جُرد الإحساس منها
فما هي عندهم إلا متاع	يُسخرها ويؤجرها ذوها
تذوب به الدساكر والضّيعاع	وأعجب ما ترى سمسار قوم
يكرّمه ويكبّره رعاع	يبيع بلاده وسواه راض
ولم أر قبّل أوطاناً تباع ^(١)	هي الأوطان تُحمى أو تُفدى

إنه بهذه الرؤية، يبين لنا موقفه من القضية الفلسطينية، ومن الذين يراهنون على انتقالها من الأيدي العربية إلى الأيدي اليهودية. كما يبين مغبة تقسيم فلسطين إلى مناطق دولية، فتح لها المحتلون والأجراء أفواههم وبطونهم، ويدعو إلى ضرورة إنقاذ عروبة فلسطين، ومنع مجريات التقسيم والمزاودة:

مَنْ لِمَـوَطِنٍ قَد تَقَسَّمَا

(١) نفسه ص ١٢٣.

كَلَّ آكُلٌ فَاغْرَ فَمَّا
فِي يَدِ الْعَدَا اعْتَلَّ وَارْتَمَى (١)

ويرتفع صوت الشاعر معرّضاً بموقف بريطانيا وأعمالها الإجرامية
إزاء ما تقوم به في فلسطين. فهي التي تخطط وتدبّر وتنصب الحيل والمكائد
من أجل مساعدة اليهود وطرد الشعب العربي الفلسطيني من أرضه.

فلجنة التحقيق التي جاءت إلى فلسطين، لم تأت لمصلحة العرب، وإنما
هي وَهْمٌ وتضليلٌ لتمرير صفقة جديدة، ومماثلة على الحقوق. وينبّه الشاعر
إلى ضرورة أخذ الحذر من المشروعات والنوايا البريطانية، هذه الدولة التي
تعمل عكس ما تقول، وتغدر بكل المبادئ والقيم الإنسانية، والعهود التي
أخذت على عاتقها حفظها وصيانتها، حتى إذا أدرك العرب خُبثَ هذه الصداقة
والمودة، استفاقوا على أجراس المصيبة وهي تنزل بهم من أعزّ صديق وثقوا
به، وأمنوا له، فراحوا يبحثون عن بواعث النضال والثورة في أنفسهم، لدفع
ما لحق بهم من ظلم وغدر وهوان:

ما «لجنة التحقيق» إلا خدعة إن لم يكفَّ يدَ الأذى تحقيقُها
يا أُمَّةً وثقت بعهد حليفها فرمى بها بين النُّيُوبِ وثوقُها
زَمَّتْ إليه ركبها، فخيولُها بالأمس مائئةُ القفار، ونوقُها
وَمَشَتْ تشدُّ ذراعَه بذراعها ويشوقه خوض الوغى ويشوقُها
ناطت به آمالها حتى انتشى ظفراً فصارحها العداء صديقُها
أمسى وأمست، همّها أن تتقي طوق الهوان، وهمّه تطويقها (٢)

(١) نفسه ص ٧٤.

(٢) نفسه ص ٢٣٦.

إننا لنستغرب كيف أقدم قادة العرب آنذاك، بالاعتماد على أعدائهم في تحقيق أمنهم وأهدافهم؟ إن العدو، لا يؤتمن، بل يؤخذ منه الحذر، لأنه سيعمل بثنى الوسائل على نهب وسلب حليفه، فهو يدرك ضعفه، وإلا لما اعتمد عليه. ثم كيف لم يرتدع هؤلاء العرب من عدم الاعتماد على بريطانيا فور إصدارها قرار (وعد بلفور)، وهذا ما يوقعنا في التشكيك بوطنية وعروبة وأصالة هؤلاء؟

ويتوجه الشاعر بحديثه إلى (العَلَم البريطاني)، رأس الفتنة ومشعلها، فهو الذي أضرم نار العداة بين العرب واليهود، يوم استقدم هؤلاء إلى فلسطين، وبدأ يساعدهم على الاعتداء على العرب وسلب ممتلكاتهم، وما كان منه بعد ذلك إلا أن أدار بظهره، وترك الفتيل يشتعل بين الطرفين، وراح يبحث عن قضايا أخرى بعيدة عن هذا الصراع.

ويطلب الشاعر منه، إذا كانت إقامته صعبة وشاقة في فلسطين، مغادرتها، أو البحث عن حلّ منطقي لهذه المشكلة التي كانت من صنعه وتدييره:

انظر إلى الأوطان وهي دوارسٌ وإلى مغاني المجد وهي طلول
الفتنة العمياء حولك أحجت وذكت، وأنت بغيرها مشغول
خلّ البلاد لأهلها إن لم يطب لك في البلاد على القتاد

لقد تحوّلت البلاد إلى ساحات حرب حقيقية، فتحوّلت مساكنها إلى أطلال، خلت من أهلها وأنسه أو بهجتها، وتحوّلت فلسطين إلى جوّ كل ما فيه يبعث الموت والفناء، فسقط من أبنائها قوافل من المجاهدين والشهداء، روّوا

(١) الديوان ص ٢٣٠.

تربيتها بدمهم الطاهر، وارتفعت في الأجواء صيحات الثكالى وعويلهنّ على ما
حلّ بالوطن والأهل:

أمست «فلسطين» مُناخاً للردى وترأبها بدمائها مجبول
في كلّ رابية جسومٍ مُرّقت وبكلٍ وادٍ أنّةً وعويل^(١)

ويومَ انطلقت الثورة الجزائرية الكبرى (١٩٥٤ - ١٩٦٢)، غنى لها
الزركلي وأنشد، وأشاد بأبطالها وشهدائها، وبقوة الشعب وحبّه للتضحية من
أجل تحقيق استقلال بلاده، وتخليصها من يرانث الاستعمار، ولعل ما قدمته هذه
الثورة من بطولة وتضحية يفوق ما قدمته كثير من الثورات في وطننا العربي،
بل في العالم أيضاً، فلقد بلغت تضحياتها أكثر من مليون شهيد، وقد صور
الشاعر بعض صور هذه البطولات، وبعض الممارسات الاستعمارية اللاإنسانية
التي ارتكبت بحق أبناء الشعب الجزائري الثائر، من أجل إخماد وثبتهم:

وفي أفق «الجزائر» وهج نار وقود لهيبها غير الوقود
هشيم سعيرها جثثٌ وهامٌ ممزقة الغلاصم والجلود
تحوم العين فيها حول دورٍ مُرشقة بلطخ دمٍ جميد
تفانى أهلها في الذود عنها سراعاً بالزناد وبالزود^(٢)

ويصوّر الشاعر همجية المستعمر وقسوته وبطشه لمحاولة القضاء على
الثورة، وخاصة أن فرنسا عمدت إلى ضرب القرى والمدن العربية بالمدافع
والطائرات، وهدمت الكثير من البيوت فوق أصحابها بالدبابات، ولم تفرّق بين
رجل أو شيخ وطفل وامرأة. إذ كانت تهدف من وراء هذا العمل الإجرامي
إلى ضرب حركات التحرر الوطنية في مستعمراتها، ولكن الشعب أدرك هذه

(١) نفسه ص ٢٣٠.

(٢) نفسه ص ٢٩٠.

السياسة وهذا الإجماع فصعد ثوراته وهجماته على المحتلين، وأدرك أن الكفاح السياسي لا جدوى منه، ولا بدّ من العودة إلى حرب التحرير لانتزاع الحق بالقوّة، لأنها اللغة الوحيدة التي يفهمها المستعمرون:

تمردّ في دساكرها دخيلٌ أغار بكل شيطانٍ مرِيد
يروع الحانيات على الذّراري ويُلوي عن مقارعة الحشود
ويجبن عن مواثبة السّرايا ويشجع في مناوشة القُعود
يصبّ النار من أفق قريب ويزحف بالدباب من بعيد^(١)

لكنّ الشعب الجزائري حمى أرضه، حيث انتشرت ثوراته في كل مكان لتحرير أرضه، وحماية أمجاد الآباء والأجداد، ليكون وطناً حراً للأجيال المقبلة التي ستكمل مسيرة الثورة من أجل البناء والتقدم:

لنا وطنٌ فدِيناه هُضيماً بطارفتنا المؤثّل والتليد
رعينا للبنين به حُوقاً ونرعى الحقّ فيه للجدود^(٢)

ويتألم الشاعر لما آلت إليه ثورة الأمير «محمد بن عبد الكريم الخطابي» في المغرب العربي ١٩٢١ - ١٩٢٦م الذي اضطر إلى تسليم نفسه، بعد أن أذاق الإسبانيين مرارة الهزيمة عدّة مرّات، وأجلاهم عن البلاد وحصرهم في تطوان وبعض المدن الساحلية، حتى فكر بعض المسؤولين من الإسبان بالجلء عن الريف كلّه. وقد تميزت ثورة هذا الثائر، بأنها ثورة إنسان بطل مكافح، لا يؤمن إلا بالقتال المسلح وسيلة لحل مشكلات الشعوب حلاً جذرياً.

(١) نفسه ص ٢٩١.

(٢) نفسه ص ٢٩٢.

والشاعر إذ يَصوِّر لنا استسلام هذا البطل، فهو أيضاً يَصوِّر لنا برود
ساحة الكفاح المسلَّح الحقيقي بعد هذا التأثر. وقد كانت الجماهير ملتفة حول
رايته وقيادته مؤمنة بثورته وأهدافه:

يا قاتليه تمسَّحوا بدمائه وتحملوا ما كان من أعبائه
لكم التراث تقسموه مغارماً ضاقت به الفلوات من صحرائه
أسلمتموه وكان في آكامه لا يبلغ السرحان جاري مائه
صمدت توابئه الجموع ثمانياً كانت سنين نعيمه وشقائه
والمسلمون، له صفاء قلوبهم شخصت نواظرهم إلى أرجائه
يدعون والدَّعوات غير مجابة إن لم يكن للمرء غير دُعائه
ضنوا، على إيسارهم، بقليلهم وكثيرهم، وتعلَّقوا بسمائه^(١)

ويتابع الشاعر أحداث وطنه، وقد كانت آخر قصائده الوطنية تلك التي
نظمها إثر (حرب رمضان) بين العرب وإسرائيل عام ١٩٧٣م، التي حُطمت
فيها أسطورة إسرائيل التي لا تقهر. وجعل شاعرنا ذلك النصر مهرجاناً
للعرب أجمعين:

المهرجان المهرجان ضجّت له إنسٌ وجان
وتمدّدت صرعاه وانتصف المثقّف والسنان^(٢)

ثم يَصوِّر لنّ اما دار في الحرب المجيدة من طعان وإقدام فيقول:

سيناء والجولان أطلق في فضائهما العنان
صعقاً بصاروخ، وقذفاً باللظى، احتدم الطعان

(١) نفسه ص ٢٧٣.

(٢) نفسه ص ٣٠٧.

زحفت جبال جهنم وغلت بها الحرب العوان
وتجاوبت قمم الشوامخ آن للظفر الأوان^(١)

وبعد أن يرسم الشاعر لوحة الصواريخ المنطلقة من دمشق، لتتدفق لظاها على العدو، وتمحو ما ران على القلوب من أحزان الماضي، يختم القصيدة ببيت يُعرب فيه عن ارتياحه للنصر، فيقول:

يا عَيْنُ أَبْكَاءِ الزَّمانِ وعاد يعتذر الزَّمان^(٢)
وهكذا يبدو لنا أن شعره كان سجلاً للأحداث النضالية الوطنية التي جرى أكثرها وهو بعيد عن وطنه.

ودعوة الشاعر مستمرة دائماً، من أجل تحقيق الحياة الحرّة الكريمة لأبناء وطنه وأمته، فهو يفخر بهم لأنهم أصحاب فتوحات ونضالات وبطولات والحياة عنده إما أن تكون عزيزة، أو فلا:

ألا وثبة إننا أمّة تُقصّ مع الفخر أنباؤها
فإما الحياة على عزة وإما المنايا وضراؤها^(٣)

* * *

(١) نفسه ص ٣٠٧.

(٢) نفسه ص ٣٠٧.

(٣) نفسه ص ١٨٤.

ظاهرة الرثاء في شعر الزركلي

إن أكثر شعراء الشام، كانوا يَهْتَرُونَ للحدّث الجلل، فينظمون فيه. وقد كانت البطولات على رأس ما نظم فيه هؤلاء الشعراء والأدباء والساسة والزعماء، وأشادوا بالوطنية والقومية. وكان هذا الشعر يمتلئ بالأمل والنخوة والحثّ على النهوض بالمهمة، والعمل للقضية، فكان أقرب إلى الحماسة والإثارة، فهو من الشعر الحماسي الوطني.

وقد كان شاعرنا الزركلي يبكي الزعماء والرؤساء وأعلام الفكر، بكاءً أنخل في باب الرثاء، تظهر من خلاله عاطفة الحزن والأسى التي يفجرها الشاعر. وقد رثى الشاعر الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٠ - ١٩٢٠)، ولد في دمشق، وله فضل كبير على حركة التعليم فيها، إذا أقنع والي الشام بضرورة فتح المدارس الحديثة حتى لا تحتكر مدارس المبشرين تعليم الناشئين، ثم عين مفتشاً للمعارف، وألّف عدداً من الكتب، وكانت له حلقة مشهورة في دمشق يؤمّها صفوة المتعلمين والناهبين والمفكرين العرب، ساعدت على نشاط الحركة الثقافية ومدارسه تاريخ العرب وتراثهم العلمي المجيد وآدابهم العريقة مما ساعد على انتشار الوعي القومي في النفوس. وقد غادر دمشق إلى مصر فراراً من إرهاب السلطان عبد الحميد. وعندما دخلت جيوش الثورة العربية إلى دمشق عاد إليها فأصبح أوّل رئيس للمجمع العلمي العربي فيها - حيث توفي في دمشق عام ١٩٢٠، وابتدأ الزركلي قصيدته بحكمّ الفناء، فلا أحد

مخلد فوق وجه الأرض، وجميع الناس سينتهون إلى آجالهم، ثم يبين الشاعر ما ألم ببلاد الشام ومصر والجزائر من حزن على هذا الفقيد الذي كان ذخراً ونوراً لكل العرب، فهو كالضياء الذي يوزع نوره للناس كافة، وهو أيضاً يتحلّى بصفات سامية، وأخلاق عالية، ولو أن البكاء يفيد ميتاً أو يعيده إلى الحياة الدنيا لبقى الشاعر يذرف الدموع بغزارة طيلة حياته:

مضى والشام واجفةً ومصر وأرجاء الجزائر في عناء
وكان لكل قطر منه حظٌ كما اشترك البرية في الضياء
بكي الباكون أكرم من تحلّت مناقبه بزهد الأبياء
ولو نفع البكاء على فقيدٍ وقفت له الجفون على البكاء^(١)

وعثمان مردم، أبو هزار، من شباب سورية العاملين للعروبة في أيام الحرب العالمية الأولى. مرض والجيش العربي على أبواب دمشق، فلما قيل له: خرج الترك، طلب «علماً عربياً» كان قد أخفاه، وقال: جللوني به، فجلّوه، ففارق الحياة. وقد وقف الزركلي مفتخراً وراثياً له، فقال:

عثمان كُنْتَ أَخاً لكل سجيّة عريّة محمودة الآثار
هلاً التفتّ إلى جفونٍ قُرّحت وإلى قلوب قد كويّت بنار
صرخت «هزار» أبي! أتسمع لله ما أشجاه صوت هزار!
قد كنت تطمع أن ترى علم الهدى في العُرب خفاً على الأقطار
حتى إذا انجلت الغياهب لم تكن لتري تألّق بازغ الأقمار
قُلْتَ: اللّواء، فجلّوك، ففارقت دنياك عينك، في أحبّ دنار^(٢)

(١) الزركلي، الديوان ص ٢٣.

(٢) نفسه ص ٧٠.

ولعل معظم صور الرثاء التي يرسم لوحاتها الشاعر، تدور في مدار واحد، هو الحزن والألم وافتداء الفقيد، وتعداد مناقبه، وذكر أهميته. فهو عندما يرثي رفيق العظم، يتمنى أن يفتديه بنفسه، ويصور حاجة البلاد إلى علمه وهدايته، وافتقاد الأخلاق إلى صاحبها الذي افتقدته، وقد خلف وراءه كل ذكر حسن، وليت هذه الصورة بالجديدة، بل هي مطروقة منذ أيام الجاهليين:

قضى رفيق وبنّا أنفساً لو يُفتدى لم تأب أن تُفديّة
العِلمُ مُستَبكٍ وباكٍ على من عود الحائر أن يهديه
والعُرفُ مُلتاعٌ على ربّه يندب من عود أن يسديه
عاش رفيق طاهراً ذليله أيام عقت طهرها الأرديه^(١)

ويصور لوعة الشعب وحزنه يوم وفاة الرجل الوطني الكبير فوزي الغزّي، وكيف نزع الوطن دموعه، على من كان أملاً للأمة والوطن، ويستعير الشاعر هنا صورة موت الآمال من أستاذ الصورة الشعرية في الشعر العربي كله - الشاعر أبو تمام -:

مشى الوطن المبكي مشية مكبول على الهام من أبنائه، أي محمول!
على الهام والأعناق آمال أمة تموت وتحيا بين يأس وتأميل^(٢)

والشاعر في رثائه لهؤلاء الرجال، إنّما يعبر عن نزعة وفاء خاصة، هي دليل حتمي على أن خير الدين الزركلي لم ينس دمشق بعد خروجه منها، ولم ينس قداماء إخوانه فيها، فما أشدّ حنينه إلى وطنه، وما أرق هذا الحنين؟ ومن إخوانه الذين رثاهم، الأستاذ محمد البزم والأستاذ سليم الجندي، إذ يقول في رثائهما:

(١) نفسه ص ٩٠.

(٢) نفسه ص ٢٥٩.

لمن خَلَّفْتما الميَـدَانِ فقيـدَي لُغَةِ الْقُرْآنِ

لمن خَلَّفْتما الميَـدَانِ، والميَـدَانِ للفرسان^(١)

أما شهداء الثورات الوطنية في سورية، فيأتي رثاؤهم على صورة تكريم وتعظيم لمواقفهم وبطولاتهم، وغيرتهم الوطنية، ومقارعتهم الاستعمار، وحبهم للتضحية من أجل شعبهم ووطنهم. والأبطال الشهداء أحمد مريود وفؤاد السليم، سقطا في معارك الشرف والصدام مع المستعمر الفرنسي، لأنهما آمنا بأن التضحية هي الطريق للوصول إلى الحرية والاستقلال وتحقيق أمانى الشعب والبلاد. وهيهات أن يكون الموت في ظلال الذل والمهانة والخنوع شبيهاً بالموت في ميادين القراع والطعان والمصاولة:

مصرع الأكرمين في «مجدل الشمس» و«جبّاتة» منار الرجال

مصرع الأكرمين في «أكم الشام» نذير العُداة بالآجال

إن يكن مات «أحمد» و«فؤاد» فالضحايا معارج الآمال

الضحايا رمز الحياة ومعنى وثبات الأقوام في الأوجال

ليس من مات في ظلال المقاصير - كمن مات في ظلال النصال^(٢)

ويصور الشاعر كيف قام الفرنسيون بنقل جثة الشهيد «أحمد مريود» من قرية «جبّاتة» حيث استشهد، وعرضها في دمشق بالقميص والسروال.

ولا نعتقد أن عمل الفرنسيين هذا، هو من باب التعظيم، لصاحب هذه الجثة، بقدر ما هو من باب التهويل والترعيب وحمل الثوار وأبناء الشعب على الهدوء والالتزام بقرارات وأوامر المستعمر:

أقبلوا يحملون «أحمد» وضًا ح المَحْيَا، مُضَرَّج السَّرْبَالِ

(١) نفسه ص ٢٧١.

(٢) نفسه ص ١٨٧.

شهد الله أنهم حملوا مو نل مُستصرخٍ وليثٍ صيال
حملوا النبيل والمهابة والحزم وصدق الأعمال والأقوال
حملوا البأس والندى، حملوا أفل ضل ما في ابن حرّة من خلال^(١)

فالشهيد إذاً، سقط وهو راغبٌ وطالبٌ استشهاده، وقد كان في جهاده كالأسد الغاضب الهائج. وهو بالإضافة إلى جهاده، يتمتع بأنبل الصّفات وأكرمها. ولم يكن الرثاء مقتصرًا على أبناء الشام وحدهم، بل تعدى ذلك ليشمل مجاهدين وأبطالاً من البلاد العربية الأخرى. فقد رثى المناضل البطل سعد زغلول. وهو أحد زعماء الحركة الوطنية في مصر، الذين كان لهم دور كبير في نموّ الوعي الوطني وإضرام ثورة ١٩١٩.

ورثاء الشاعر لهذا البطل العظيم، هو مديح وافتخار وتعظيم لهذه الشخصية التاريخية، وهذا يعني أن الشاعر تعدّى حدود البكاء والوعويل، فيقول:

وإذا دعاه الحزم قام بعزمه تتهدم الدنيا ولا تتهدم
ومشى كمنبثق الأتيّ كأنما هو وحده جيشٌ يصول عرمرم
يمضي، فتزحف مصر ثابتة الخطأ ويومّها، فتميل حيث يُيمّم
أيام «سيشل» لم تثلم حدّه ما حدُّ «سعد» بالذي يتثلم^(٢)

ولم تكن الفاجعة لمصر وحدها، بل هي لكل العرب:

في كل منتجع قلوب تصطلي متناعة، وبكل نادٍ ماتم
في الشام، في البلد الحرام توقّد ألماً، وفي دار السّلام تضرّم

(١) نفسه ص ١٨٨.

(٢) نفسه ص ١٤٢.

حمل النُعاة الهول في نبراتهم يا رزء «سعد» إن يومك أيوم^(١)

ويوم انتقل منشئ الدولة العربية السعودية - الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود - إلى رحمة الله، نرف الزركلي دموعه ودرره الشعرية على الفقيد الذي رعاه في ظلاله، وسانده في نكباته .

وفي هذا الرثاء يختلط المديح وذكر صفات المرثي حتى كأنك لا تحسّ جديداً في تركيب الصورة الفنية، فمعظم صوره في هذا الميدان مطروقة في شعرنا العربي، ثم كيف نرثي فقيداً غالباً علينا، ونهنئ الرجل الذي سيتسلم مقاليد الخلافة من بعده؟ أليس هذا يضعف من قوّة عاطفة الحزن؟

عبد العزيز، قضى، سلمت سعود ما في الرجال كمن فقدت فقيد
جبل أشمّ هوى وغيب في الثرى أهدّ طوى هضباته أخدود
دهرٌ من التاريخ، في عمّر امرئٍ قَصُرَتْ حياة الدهر وهو مديد^(٢)

وينقلنا الشاعر في قصيدته إلى ذكر عظمة هذا الإنسان الذي تبدّت من صلابته أحداث كثيرة، وقامت أفعال جليلة، وكل ذلك بأسلوب وصورة كلاسيكية نذكرنا أحياناً بما جاء به الشاعر المتنبي منذ العصر العباسي:

تتعاقب الأحداث دُهماً حوله ويُجِيل فيها طرفه فتعيد
ويثور بركاناً إذا استغضبتَه للحقّ، ما لِلظّاهِ فيه خمود
وتراه يبسم للخطوب كأنّما هو باجتياز شدادها موعود^(٣)

(١) نفسه ص ١٤٢ .

(٢) نفسه ص ٣٠٢ .

(٣) نفسه ص ٣٠٤ .

ويوم كان سفيراً للملكة العربية السعودية في المغرب العربي، شهد وفاة ملك المغرب، محمد الخامس، فرثاه بقصيدة طويلة، سار فيها كما سار في قصيدة رثاء الملك عبد العزيز فصورّ المأساة والحدث المؤلم الذي حلّ بالقلوب، وعدد بعض مناقب الفقيد، وهنأ ولي العهد الجديد بأمر الخلافة التي انقادت إليه بالوراثة:

ما مات أمس محمد، ومحمد في الخالدين سناؤه وغناؤه
ملك تبّوأ في القلوب مكانه عرشاً تأصل في القلوب ثراؤه
ما غرّه صفو الزمان ولم تنل من كبرياء شموخه أرزأؤه^(١)

هذا هو الرثاء في شعر الزركلي، ظاهرة عزف على أوتار ألمها، ووقف فيها على رثاء بعض الشخصيات المهمة في حياته، والتي كانت له علاقة حميمة معها إلى حد ما، ومن الرجال الذين رثاهم أيضاً، أسعد داغر، والملك فيصل بن عبد العزيز، ومحمد علي الهنّي، وهذا واحدٌ من كبار رجال المسلمين في الهند أيام نضالها مع محتليها البريطانيين.

* * *

(١) نفسه ص ٣٤٠.

صورة الواقع الاجتماعي في شعره

أصاب الشعب العربي خلال العهد العثماني من الفساد ما لم يصبه من قبل خلال العصور، فقد فشت الدنيا، وعمت الرشوة والفساد والجاسوسية والنميمة، وسقطت الأخلاق عامة، وغدا للمال والمنصب والرتبة واللقب مكان فوق مكان الشرف والخلق الرفيع، فلما قامت الحرب العالمية الأولى زادت الفساد فساداً لشدة الحاجة وانتشار الجوع، وظلام المصائب، فأصبح العاقل يرى الأمراض الاجتماعية فتاكة تكاد تأتي على ما بقي للشعب من إيمان بالمثل العليا. لذلك عكف الشعراء على وصف هذه العلل الاجتماعية.

وكان خير الدين قد تأثر أيما تأثر بما أصاب قومه، فعمد إلى الشعر بينه شكاته وتسلق منبره، يخطب عليه، ودلف إلى القوافي يصور بها مآسي الشعب في شعر قصصي برع فيه الزركلي غالباً. فصور لنا فجاج الحرب العظمى، وأهمها الجوع الذي أصاب الناس، فقد ضاقت «أم شريفة» بوليدها، وسامها نذلٌ وضيعٌ بيعَ أعزّ ما تملك المرأة، فنزلت على كره منها، وباعته بدراهم تقي ولديها الموت والعلة، ولكنه سرق دراهمها، وولّى، فلا درهماً نالت، ولا نفسها وقّت، وما لقيت من الناس إلا الأذية^(١):

تصدى لها من سامها السوء بأذلاً لها مستجادَ النقش يزهو ويبرق

(١) الدهان، سامي، مرجع سبق ذكره ص ١٦٤.

فألقت على وجه السَّمَاوَاتِ نَظْرَةً تكاد إذا تُلقَى على الصَّخْرِ تَحْرُقُ
وطال على ابنيها التخلف عنهما فباتا وداءُ الجوع لا يترَفَّقُ^(١)

وهذه القصص الشعرية تشبه ما خلفه بشارة الخوري وخليل مطران من قصص البؤس والمجاعة خلال الحرب، والزركلي مع ذلك متين التركيب، موسيقي اللفظ، يحسن اختيار كلماته فهو جزل مع الرقة، ولو ألحَّ على هذه الناحية في شعره لمشى إلى الفوز والتوفيق في سائر شعره.

وفي قصيدته (سعد وسعدى)، يرسم لنا لوحة من صور الشقاء الإنساني، ويأتي الحوار على لسان الأم وابنها سعد، حيث تعصف بهما رياح الفقر والجوع والحرمان، وينفطر قلب الأم للحالة الاجتماعية التي أحاطت بالأسرة، وكأنَّ صروف الدهر كلَّها اجتمعت في حياة هذه العائلة الفقيرة التي لا تملك رمق بطونها، فباتت تمضغ الألم والحرمان، وهيهات أن تتال إحسان الناس وطيبهم، بسبب فقدان الشفقة والمحبة والإحسان، وكأن قلوب من ملكت أيديهم قد قُذت من صخر صلد، ثم يبرز الشاعر من خلف حجاب ومعاونة ليدعوها إلى «جمعية النداء الخيري» التي ستحلُّ المشكلة، فتنبسم النفوس بالأمل:

رَنَتْ سُعْدَى إِلَيْهِ، وَقَدْ أَلَمَّتْ بِهَا الْأَحْزَانُ وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ
بُنَى! رَوَيْدَ عَذْكَ إِنْ شَجَوِي لَمِمَّا قَدْ أَحَلَّ بِنَا الْقَضَاءُ
وَمَنْ كَانَ الشَّقَاءُ لَهُ حَلِيفًا فَقَدْ أَوْدَى بَعَزَتَهُ الشَّقَاءُ
تَرَى أَخْوَيْكَ قَدْ بَاتَا وَبَتَا جِيَاعًا، لَا شَرَابَ وَلَا غِذَاءَ
أَنْسُجِدِي الْوَرَى وَالنَّاسَ إِمَّا تُرْجِي مِنْهُمْ حَسَنًا أَسَاؤًا
فَجِئْتَ إِلَيْهِمَا أَمْشِي الْهُوِينَا كَمْشِي الشَّيْخَ أَعْجَزَهُ الْعِنَاءُ

(١) الزركلي، الديوان ص ١٥٠.

وقلت: إلي والدينا بخير لقد سمعت دعاءكما السماء
هلم إلى مبيرة أهل فضل شعارهم المروءة والسخاء
إذا ما المستغيث شكا أجابوا وفرج عنه كربته «النداء»^(١)

البناء القصصي هنا ليس جديداً، فعرض المشكلة، ثم تعقيدها إلى درجة فقدان الأمل، ثم بروز الشاعر كبشارة للحل، هذا الأمر، قرأناه في قصة كرم الشاعر الحطيئة، ولكن الشيء الجديد هنا في هذه القصة هو فقدان القيمة والفضيلة والمعاني الإنسانية عند البشر. وفي قصيدة أخرى بعنوان «في مجمع الأيتام»، يرسم لنا الشاعر لوحة شبيهة بما رأيناه في قصيدة «سعد وسعدى» حيث تبدأ القصة أيضاً بالمعاناة والبكاء وندب الحظ والأيام وقسوة المجتمع. وأشخاص القصة هنا أيضاً، أم وثلاثة أطفال، يدنو منهم الشاعر ليدعوهم إلى مكان أنشئ حديثاً في القدس، هو مدرسة دار الأيتام الإسلامية، حيث تحل مشكلتهم هناك:

أيتها المطفل لا تجزعي أيتها الثاكل لا تفرقي
إن بني عمك قد أزمعوا والنجح كل النجح للمزمع
شادوا لأبنائهم مجمعاً أعظم بنادي العلم من مجمع^(٢)

وتقول جريدة المقتبس (بدمشق) في صدر عددها (٢١٦٦) بتاريخ ٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣٥، ٢٨ مارس ١٩١٧، ما يلي: (اطلع صديقنا خير الدين الزركلي الشاعر المعروف في صحف بيروت الواردة مع بريد اليوم على نبأ يقول: «نزل شخص إلى المرفأ، وألقى بنفسه إلى البحر، ولمّا شعر به القريبون،

(١) نفسه ص ٣٧.

(٢) نفسه ص ١٨١.

تهافتوا لانتشاله، فإذا هو ميت، ولدى التحقيق، فهم أن الرجل ذو أسرة مؤلفة من ثمانية أشخاص، عجز عن إعاشتهم، فألقى بنفسه تخلصاً من هذه الحياة الضنكة»، ولم يكد يتم قراءة الخبر حتى تناول قلماً، فأنشأ القصيدة الآتية:

ما بال بيروت لا تبكي العيون بها دماً وتضطرب الأكباد من ألم
تلوت في صحفها من أمرها نبأ لم يبق في القلب عرقاً غير
والقوم في غفلة ما ثم متعظ يُرجى، فيرحم أو يُنجي من النقم
بيننا هم في ضفاف البحر قد شغلوا بحسن مرآه عن هم وعن سقم
يغازلون من الأمواج نائرها لاهين منها بمهتاج ومُلتطم
إذا مرواً كان فيهم غير مكترث له، انبرى، وتمشى ثابت القدم
ألقى إلى اليم بالنفس التي كرمت يدعو المنية لم يوجل ولم يجم
وسارعت نحوه النظار تُقذه ومن يُغيث طُوب الموت والعدم
تهافت الناس كيما يمنعوه ردى فأنقذوا جثة غاصت ولم تغم
قضى شهيد صغارٍ لا نصير لهم ولا مُغيث فأبكى مقلّة القلم^(١)

في هذه القصة يبرز أمران، الأمر الأوّل هو صورة الإنسان الذي قدم إلى البحر، فرأى فيه مصدراً للترويح عن النفس والمتعة والسعادة، والأمر الثاني هو صورة الرجل الذي قدم إلى البحر، فرأى فيه ملجأً لأحزانه وهمومه فأراد دفنها في صدر البحر، لأن العالم الإنساني قد ضاق بهذه الهموم. فيكون المجتمع هو القاتل الحقيقي لهذا الرجل، وليس البحر؟ البحر هو المنقذ، والمجتمع هو مرتكب الجريمة.

(١) الديوان ص ١٩٣ .

وما هدف الشاعر من عرض هذه القصص الاجتماعية المؤلمة سوى رسم لوحة عن طبيعة الحياة في ذلك الزمن، وفي ظل ذلك المجتمع، فأين هو الحبّ الإنساني، والتعامل الإنساني والإحسان والخير ومدّيد المساعدة إلى أمثال هؤلاء؟ أما في قصيدة (هدية الشمس)، فهو يرسم لنا صورة فتاة جميلة، تقدّم إليها أبواها، يقنعانها بخطيب ذي مال وجاه، ولكن عمره ستون عاماً، فثارت بينهم قضية الزواج من غير الكفو، وتقربت الأم منها بأسلوبها تغريها به، وبأنها ستصبح غنية، وسترثه بعد أن يموت عما قريب، وتقبل الفتاة بالشيخ العجوز زوجاً لها، وباتت ترقب موته. لكن الشيخ يفقد ثروته قبل أن يموت، فتُصاب الفتاة بهمّ عظيم، إذ إنها فقدت كل آمالها، وساعت حالتها من هذه المعاناة (الشيخ والفقير)، وأصابها صراع نفسي، فنفذ صبرها، فتناولت كأساً من السم، وابتسمت للموت. ويرى الشاعر أن هذه المأساة سببها الطمع والجشع، وأن العلم سبيلٌ للقضاء على ما آلت إليه الفتاة، فعلمها يفيدها، ويجعلها تصدر أحكامها بصورة أكثر عقلانية ومنطقية، ولو أنها ربّيت بصورة مهذبة، لما حصلت المشكلة، ولأفادت المجتمع، وكانت ربّت أسرة أكثر صلاحاً، إذ إن المرأة هي الأساس الذي تنهض به الأمة، ويقوم به المجتمع:

قالت الأمّ لها:

يا حَبّـة القلب اقنعي - بالنـصيب
هو شيخٌ، سوف يقضي بعد حين، فدعي - ما يُريب
ترثين المال جمّاً، فهلمّي واجمعي - ما يُصيب
والأب الجاهل مُصنّع لهما، ذا طمّع - بالخطيب
أقنعا بنتهما، فارتضت الشيخ، فطال
مكثها في أهله، مكثاً على أسوء حال
ترقبُ البنّت بموت الشيخ، حلامن عقال⁽¹⁾

(1) نفسه ص ١٢٠.

قد نلتمس العذر لهذه الأسرة، عندما نعلم أن تاريخ كتابة هذه القصيدة، هو عام ١٩١٧، وهو زمن انتشر فيه الفقر والجوع وكثرت فيه المآسي الإنسانية، وما هو رأي شاعرنا لو اطلع على مثيلات هذه الأسرة في عصر الحضارة والعلم والتقدم؟

الشاعر عرض القصّة بأسلوب هادئ وحواري، ورسم ظلال القصّة وأحداثها بطريقة تعبّر عن دمار الحياة المقبلة في حالة استمرار الزواج على هذه الشاكلة.
موسيقا الأبيات جاءت على البحر الخفيف، فهو في الأبيات الأربعة الأولى يأتي بخمس تفعيلات وهذا ليس من صحيح الخفيف أو مجزوءه، ثم يعود في الأبيات الثلاثة الأخيرة، ويرسمها على المجزوء، وكثيراً ما يتشابه الخفيف والرمل.

وفي قصيدته (لم تف يا قمر) صنع الزركلي ألواناً للبؤس مختلفة، يبدو أنه قالها حين احترقت مكتبته، فصبّ في شعره ألوان المآسي التي كان يراها حوله، فمن فتاة حسناء، أفقرها الزمان، وجردّها من الجمال، فتصرفّ بها القدر ساخرًا هازئًا، ومن نابغة طوته المنون، ومن غريب عاش كئيباً مضطرباً، ومن جريح يطوي الليالي مسهّداً، ومن حروب تقوم بين الناس فتفني كلاً من الجانبين...

لم تُبقِ أيدي الحادثات ولم تَدْرُ فعلام تضحك في سماءك يا قمرُ

أرأيت تانهية على أترابها
فتانسة بسفورها وحجابها
غلابسة بدلالها وعتابها
غلابسة بديتها وخطابها
ذهب الزمان بمالهها وشبابها
وتفردت بأينها ومصابها

ناجتك شاكيةً تصاريفَ القَدَرِ وظللت تضحكُ في سمائك يا قَمَر؟^(١)

هذا موشحٌ طريفٌ عذب، في معانٍ بسيطةٍ سلسلة، ولغةٍ سهلة، وقوافٍ لينة تتنسل انسيالاً في الأذان كما تتنسل الموسيقى الهادئة. وقد وفق الشاعر في وصف الحياة وصفاً فلسفياً على صور أخذة، كما وفق إلى رسم الأخلاق في المجتمع، بشعر بسيط كذلك، فرأى أنّ الحق لا يُحترم، وإنما تحترم القوة، وأنّ الكذب سائر مصدق، وأن الحرص على الجاه والمنصب والتاج علة الناس^(٢):

أية نفسٍ من أسى ناجيه والناس في حالكة داجية
هذا ينادي: منصبي منصبي وذاك تاجي ويحكم تاجية!
وإنّما الفوزُ لشعبٍ صحا والخسر حظّ الأمة الساجية^(٣)

ولعلّه تأثر في هذه الأوصاف الاجتماعية بشعر أبي العلاء، فتناول المفسد، والأخلاق، ورسمها في زمانه، فكأنه المعريّ يصف زمانه، وكأنّ الأيام لم تتبدل، والناس هم هم، وفي شعره الزهد بالمال ووصف الدهر، ورسم الموت، وعظة الحياة.

وشعره الاجتماعي، يدل على عمق وفلسفة وحكمة، ولعلّها من كثرة قراءته أو من وفرة اختلاطه بالناس، ودخوله في السياسة، وتقلّبه في الأمصار العربية، والمناصب السياسية، فهو يصف الناس^(٤)، فيقول:

أضحك ذو اللب مما يرى وفي عالم الأئس ما يُضحك
عزيزٌ يذلّ، ودونٌ يحلّ وفي كل أرض دم يُسفك

(١) نفسه ص ١٩٧.

(٢) الدهان مرجع سبق ذكره ص ١٦٥.

(٣) الزركلي، الديوان ص ١٥٦.

(٤) الدهان، مرجع سبق ذكره ص ١٦٦.

بريء يعدونه في الجناة وجان يبّراً أو يُترك
رأيتُ سبيل الهدى وعرة ولم أر في الناس من يسلك^(١)

ولم ينس الشاعر أن يرسم لنا صورة الإنسان الفلسطيني (اللاجئ)، هذا الذي أغرق الأرض بدموعه ولم يساعده أحد على تجاوز محنته، وكأن الناس لا يساعدون الضعيف، ولا يأخذون بيده؟

اللاجئ، معروفة قصته، لقد جاء الغزاة إلى أرضه، وطردوه منها، وتركوه في مهبّ الريح، تنهش من لحمه الصهيونية تارة، وتنهش من الحكومات المتواطئة تارة أخرى، فيسقط شيئاً فشيئاً، حتى ينهار وينسحق:

دموع من تلك التي تُذرف؟ وقلب من، هذا الذي يُوجف؟
إن كان إنساناً فهلا صغى إليه من يرحم أو يرأف
أم ليس في الناس لمستضعف من ناصر يعطف أو يُنصف
جرده من بأسه غادر وسامه الذلّة مُستضعف
أقلت به الأيام في هوة أيسر ما يلقي بها المتألف
يصارع الحدّثان جياشة كأنها في فيلق تزحف
إن ردّها مؤجفاً خطبته عاجله من خطبها مؤجف^(٢)

إلى أن يقول:

لو أنصف الناس لما روعوا فميم يُراع الأعزل الأضعف
بين التعلّات وبين المنى في كل يوم لهم موقف

(١) الزركلي، الديوان، ص ٢٩٩.

(٢) نفسه ص ٣٣٣.

يثرثر الساسة من حولهم هذا يُمنِيهم وذا يلهف
كأنهم حقل تجاريبهم وليس من يانعة تُقطف
أطبّة حول ضنٍ شَرَّحوا جُمانه، وعينه تَطَّرِفُ! (١)

ويغلب على هذا كلّ صور اليأس من الناس، والوجوم والحزن والتشاؤم، سواء في ذلك وصفه للحياة أم الأحياء في عصره، فلعلّه أخذ من الجو السياسي البغيض صورة للتفكير والحكمة، بل لعل حال العرب وتفككهم هو الذي ساقه إلى هذه النظرة السوداء.

ومهما يكن من أمر فقد نظم الزركلي في أسرار الوجود وفي حقيقة الورى، ولا نستطيع أن نقطع ببعده عن معاني القدماء وأخذه عنهم، فقد تكلف أول الأمر بالسير على خطاهم، وظهر أنه يحاول أن يكون شبيهاً بالفحول منهم، فأخذ من البحتري والمتبني والمعري، حتى اتهمه بعض النقاد بسرقة تلك المعاني والعدوان عليها، ولكن الرجل سرعان ما استقلّ بمعانيه وألفاظه فأصبح على الزمان متمكناً من ناصية الشعر والمعاني، يصول فيها ويجول، لولا أن الوظيفة والمناصب السياسية استلبته من قصر الخيال إلى خيال آخر فيه أنماط من العيش لا يدركها الشعر ولا يطرقها.

وفي شعره متانة التعبير ودقة التصوير وأصالة الشاعر، وتعلّقه بعمود الشعر في كثير من قصائده، وتوليده لأساليب في النظم، وطرقه للموشح، وتقليده لشعراء الغرب، أو شعراء العرب في الأندلس.

فهو من شعرائنا الكبار السوريين، كان يبشّر بمستقبل عظيم لو لم ينقطع عن الشعر إلى السياسة وإلى التأليف العلمي في تراجم الأعلام، ولكن

(١) نفسه ص ٣٣٤.

هذا الانتقاع لا ينزع عنه صورة الأديب الفحل والشاعر الموفق والوطني المخلص والعربي الأبيّ المناضل والسياسي المحلّق^(١).

ولعلّ آخر ما رسمه الشاعر من صور الواقع الاجتماعي، هو صورة الحرب اللبنانية، التي ما زالت نيرانها تشتعل حتى اليوم، وبعد خروجه من مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت، صهرت روحه نيران القناصة، فانفجر يردّد هذه الأبيات، يخاطب فيها «قنّاصاً»:

اضرب فهذا أخوكا واطعن فذاك أبوكا
ألست قنّاص حيّ أقام فيه نووكا
بنو عمّك الأقربون بل هم بنوكا
ويرحم الله من إن رُحِمْت، لم يرحموكا!!^(٢)

وقبل وفاته بثلاثة أيام، وقبل أن تدهمه غيبوبة الموت، وكان كل همّه وترقبه، أن تنفجر الأزمة في لبنان، وقد أرهقت روحه بفواجعها وكوارثها، كتب الأبيات التالية، ودسّها تحت وسادته، حيث وجدتها إحدى بناته:

متى تتبرج الدنيا ويشدو هزارُ ربيعها بعد النحيب
وتبتسم الأزاهر في رباها معطرة الندى بشميم طيب
أما للكارثات من الرزايا ختام بين..... والصليب^(٣)؟

وأعتقد أن الكلمة المحذوفة هي كلمة (أحمد)، لأنها مناسبة معنى

ومبنى.

(١) الدهان، مرجع سبق ذكره ص ١٦٧.

(٢) الزركلي، الديوان ص ١٩.

(٣) نفسه ص ١٩.

الشاعر والغزل

الحديث عن جانب الغزل في شعر الزركلي، يكاد يكون قصيراً، ولعلّ هذا الأمر مردّه إلى أن الوطن قد ملأ قلبه بهواه ورؤاه وتاريخه وآلامه.

فقد تلفت الرجل منذ مطلع شبابه إلى معالي الأمور، ونظر إلى نضال قومه نظرة الجدّ، فعكف على رسم النضال والكفاح، وعاف ما دونهما من غزل ونسيب وهوى^(١).

ولعلّ الشيء الذي ملأ وقته أيضاً، وصرفه عن هذا الأمر، عمله في موسوعة الأعلام، خاصة وأن هذا الأمر يحتاج إلى البحث الدائم، والعمل الحثيث، والجهد المتواصل.

ولكن! تبقى للنفس الشفافة غنائيتها في أوقات السحر والصقّاء، فالشاعر بشر من لحم ودم، لا يبدّ وأن يعزف جمال المرأة وسحرها على أحد أوتاره، فيسمعه لحناً، يأخذ بالأبواب، ويعصف بالقلوب، فتتسابُ أشواقه على قيثاره العشق.

وتستبد بالشاعر معاناة الحب، فيرقب طلعة الحبيب مع النجم المشرق، ويسأل الليل المتجهّم عن سبب غيابه، ويتذكّر معه أيام الوصل واللقاء، يوم كان ينعم بالسعادة والدفء، حين تذوب أنفاسه بأنفاس الحبيب، فيشرق كل شيء في قلب الشاعر وروحه؛ فتكون لغة عواطفه، بثّ الأشواق والمعاناة، ووصف اللقاء بمن أحبّ، وتحقيق الرغبة الجامحة:

(١) الدهان، سامي، الشعراء الأعلام في سورية ص ١٦٣.

دعيني والسماءَ على انفراد
 وأسأل عنكِ غاشيةِ الدِّياجي
 أذاكرة ليالينا اللّواتي
 عناقٌ لا يكدره فراقٌ
 وأنفاسٌ لأنفاس مزاجٌ
 تكاد بهنّ أوداج تذوب^(١)
 أناجي النجم يطلع أو يغيب
 وإن تكن الدِّياجي لا تجيب
 مزين وكلهن هوىً وطيب
 وضمٌ مثلما اتقد اللّهب

وتراه أحياناً أخرى، يعلن بأنه يذرف الدمع لأجل الهوى والغرام الذي علق بقلبه وليداً. وهذا الأمر يُعلنه في قصيدة (غزل) التي كتبها عام ١٩١٢، كما يذكر في الديوان، وهذا الأمر أيضاً يقودنا إلى التساؤل عن مجموعته الشعرية (عبث الشباب) التي احترقت في مطبعته، وأكلت النار أصولها. وعمّا أطلقه عليه الدكتور سامي الدهان عن عزوفه عن الهوى والعشق، وتعلّقه بالهمّ الوطني، حيث خلا ديوانه الأول من همسات العشق. فإذا كانت أصول أشعاره الأولى قد احترقت، وخلا الجزء الأول من ديوانه الشعري، وفيه ما نظم إلى سنة صدوره /١٩٢٥/ على حدّ زعمه، فمن أين تسرّبت هذه القصيدة مؤرّخة في ديوانه بعام /١٩١٢/؟

بما أن الشعر الذي ضمنه في ديوانه الأول يحوي على كل ما نظمه حتى عام ١٩٢٥، فالمفروض أن يضم الديوان هذه القصيدة، أو أن يقول الشاعر: لم يحو هذا الديوان على كل أشعاري التي نظمتها حتى هذا التاريخ. وعلى كل حال، هذه قضية يجب الانتباه إليها.

وأشواقه في القصيدة تعبّر عن هيام الشاب العاشق، ولوعة قلبه، وتعلّقه بمن أحب، فاستبدّ الهوى بنفسه وتمكّن:

تَهْ، طال تهطالُ دمعي في هوى
 وبالنّوى ونواحي طال تسهيدي

(١) الزركلي، الديوان ص ٢٧.

يا زائد الصّدّ صادت مقلّتاك فتىّ فتنته بجمال الخال والجيد
علمتني بالنّوى حُكم الهوى أشكو الجوى وتباريحي وتنكيدي
لي الأئينُ، وللقلب الحنينُ، وللـ عين الهتونُ، وتخديد

هذه المعاناة من المحبوب قرأناها في أسفار معظم شعرائنا في كل العصور، ولمسنا حرارة أشواقهم وعواطفهم، خاصة عندما يجفو الحبيب ويبتعد.

ويلجّ الشاعر على ظاهرة التشوّق لمن أحب، حتى كأن نار الشوق موقدة بين ضلوعه، وكل ذلك أملاً بقاء الحبيب الذي يسعده بوصله:

طال إليها حين حا ن وعُدّها، تشوّفي
وبي من الشوّق لهيـ ببّ نارُهُ لا تنطفي
وُعُودها مُسعدتي والمطلُّ منها مُتلفي
عرّفني دلالتها في الحبّ ما لم أعرف^(٢)

ونظراته تلاحق مَنْ يهوى، وما أجمل أن يتأمّل وجه محبوبته، ويعيد فيه التأمّل والنظر، وما ذلك إلا لأنه يسعده، ويربط قلبه بسحر الجمال الفاتن:

تمايلت ضاحكةً غانيةً رصّدتها
لما بداني وجهها أسفّت إذ شهدتها
ونظرة صوّبتها ونظرة صعدتها
لو استعاد ناظرٌ نظرتَهُ استعدتها^(٣)

(١) نفسه ص ١٤١ .

(٢) نفسه ص ١٣٦ .

(٣) نفسه ص ١٤٧ .

والمقاطع هنا تأتي خفيفة الوزن، رشيقة العبارات، جميلة المعاني، لأنها
تعبر عن عواطف الشاعر العامرة بدفء الحب.

وتأسر قلبه فتاة بدوية، تعبر ملامحها عن الأصالة والنجابة والتحضّر،
فهي غزالة شردت بين الفيافي وراح الصياد (الشاعر) يلاحقها بنظراته
وعواطفه على الفور، لأنه تعلق بحسنها وجمالها، حتى إنها أنست كل ما عهد
من جمال وحب، فهو بهذا يعيدنا إلى الحب العربي الذي نما وترعرع في
كنف وبين أحضان صحرائنا العربية في عصور متقدمة:

جلا بدويّة العينيّة ————— من حُسنِ نضارة الحَضِرِ
غزالة سبّسب شردتْ ————— وكُنْتُ لها على الأثر
عرفت الحُبَّ يوم عرف ————— لها، وجهاته عمري^(١)

وأحياناً يرسم لنا لقاء، مع فتياته بصيغة الحوار القصصي، فيقول:
قالت لصاحبة لها: أترينه ————— ممن تدلّه بي؟ فقلت أراني
قالت: سبيك. قلت: حيث سرّيت ————— قالت: أشغّلنا؟ فقلت: عساني
قالت: أطلت. فقلت: ليست بمقصر ————— قالت: تنحّ. فقلت: طاب مكاني
فتحوّلت، وتتبعها نظرة ————— مني، فعادت عودة الغضبان
وإذا بأتراب لها استبطأنها ————— فأحطن بي فرأيت حور جنان
وتركنني فكأنني استيقظت من ————— حلم، ولم يطق الكلام لساني^(٢)

والقصيدة مؤرّخة في ديوانه سنة (١٩٢١)، وهذا أمر يثير التساؤل
الذي طرحناه سابقاً.

(١) نفسه ص ٩١.

(٢) نفسه ص ٣٨.

وكغيره من الشعراء، وبعد أن غزا الشيب رأسه، وطعن في السن، أصبح
يبتعد عن معاشره الفتيات، وكأن الأمر أصبح عيباً، فيطلب من الفتاة العاشقة،
التي ما تزال في أوج عنفوانها أن تبحث عن شاب مثلها في الحرارة والأشواق،
لأنّ مسافة العمر بينهما تمنعه من الإقدام على الحبّ، ومبادلة الشعور:

أنا في شيبتي أودّع أيام ... شبابي، وأنتِ في عنفوانك
بَعَدَتْ بيننا المسافة فاسقي غير قلبي كاس الهوى من

إن شعره الغزلي يعيدنا إلى صورة ما قرأناه في الشعر العربي من لقاءٍ
وحبٍّ وأشواق وهيام وصدِّ ومعاناة، وإقبال على المرأة في مقتبل الشباب،
ووصف المغامرات العاطفية، ثم الابتعاد عنها أيام الشيب والشيخوخة، فهو
بغزله شاعر تقليدي.

* * *

من الخصائص الأدبية في شعره

دخل خير الدين الزركلي عصرنا الحديث بهيئة الحكيم الوقور الذي يحمل في عباة تاريخ أمته العربية، ورحلة مسيرتها منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا، «وقد خلقَ الزركلي للشعر، وخلق الشعر له، خلقه الله شاعراً من أول حياته، ففي قامته المدينة، وفي عينيه الناطقتين وفي عذوبة حديثه إذا حدث، وفي شدة غضبه إذا غضب، وفي حلاوة رضاه إذا رضي، وفي لطائف نكته إذا مزح، في هذا كله برهان قاطع على امتزاج الشعر بنفسه، فهو شاعر ملء روحه وملء قلبه، حمل لواء الشعر في الشام في وقت كان عدد الشعراء فيه محدوداً، وقد دفع حبّ خير الدين للشعر إلى تكريمه كبار الشعراء إذا جاؤوا دمشق، فقد لجأ شاعر العراق الشيخ رضا الشيبلي إلى دمشق في أيام حكومتها العربية هرباً من احتلال العراق، فدعاه خير الدين على سهرة في داره في حيّ السمانة، يقول: وكنا أربعة، أنشد بعضنا شيئاً من شعره في السهرة وما كان الشعر في ذلك الوقت إلا إعراباً عن النزعات الوطنية.

وحسب خير الدين الزركلي امتزاج روحه بروح البحري والمتنبّي، لتجتمع له أصالة الشعر ومحاسن الذوق وحلاوة الصور وسهولة الألفاظ وعذوبتها، لقد تجلّت هذه الفضائل كلها في شعره، تجلّت في قصائده الوطنية التي فاضت محبة لدياره وشغفاً بوطنه وثورة على المعتدين عليه، وتحريضاً على إخراجهم من ديارنا.

وعلى الرغم من قوّة خير الدين في الشعر ومن إحاطته بدقائقه، كان لا يتّمم من رأي يبدي له في بعض شعره إذا كان في هذا الرأي ما يعترف بصحته، فقد جمَعنا في يوم من الأيام مجلساً، فكان خير الدين يروي بعض أبيات من شعره، في جملتها هذه البيت:

إذا ضلّ الهداة فليس بدعاً ضلال السالكين بلا دليل

فقال له جليس من الجلساء، لو قلت يا خير الدين:

إذا ضلّ الدليل فليس بدعاً ضلال السالكين بلا دليل

لكان قولك أوقع، وكانت نغمة الموسيقى أعذب، فقبل خير الدين رحمه الله هذا الرأي، وحذف لفظ الهداة، واستعمل الدليل، وفي هذا برهان على اعترافه بموسيقى الشعر، ولماذا لا أقول: على روحه الشعرية.

وإن عظمة خير الدين تنحصر في ثلاثة أمور:

- في شعره الذي حمل لواءه.

- في وطنيته التي جاهد في سبيلها.

- في أدبه الذي استغرق سنين غير قليلة من عمره^(١).

ويقول الدكتور شكري فيصل - رحمه الله - :

إننا نؤخذ حين نقرأ شعر الزركلي... ذاك نمط من رفيع البيان ورائع التصوير، ونير الأداء... لم يبق من القادرين عليه إلا القلّة... إنه أحد هؤلاء الذين صاغهم وصفّاهم لهب نهضتنا على نحو ما كانت النهضة من ثمارهم... والظاهرة البارزة عندهم، لا نكاد نجدها عند غيرهم، أنهم أوتوا الموهبتين:

(١) من كلمة للشاعر شفيق جبيري في كتاب: علم الأعلام ص ١٦.

موهبة الشعر وموهبة النثر... لقد كنت منذ سنوات بعيدة ألمح هذه الظاهرة وأحاول سبرها... ولعلّي انتهيت - أو قاربت - إلى أنها ظاهرة توشك أن تكون أشد وضوحاً في هذا القطر الشامي منها في أي قطر آخر... إنك تقرأ نثر الزهاوي أو الرصافي، فتحسّ هذا الوادي الذي يفصل بين شعره ونثره... وتقرأ نثر شوقي فتجد أنه شيء آخر رائع، ولكنه غير شعره... وواضح جداً إحساسك بهذا الفرق بين نثر حافظ وبين شعره... على حين يستبيك أن تقرأ لجبري شعره الرفيع، كما تقرأ له نثره الرفيع... وتقرأ لمردم ما كتبه في النثر فإذا موصول الأسباب بروح الشاعر عنده... وتحر مثل هذه الحيرة حين تقرأ الزركلي شاعراً، وحين تقرأه ناثراً... فكيف يُسرّ لهذا الجيل من رجال البيان عندنا - ومثلهم - أن تكون لهم هذه القدرة المزدوجة، وأن يكون نتاجهم هذا الدينار المجلو المصقول الواضح، كتبوا على إحدى صفحتيه شعرهم، وكتبوا على صفحته الأخرى نثرهم... فجاء هذه القطعة الواحدة التي لا تملك أن تفصل بين وجهيها... كلاهما يتعاونان على صياغتها، وكلاهما يهبانها قيمتها (... على مثل ما تتألف خيوط اللحمة والسدي في صياغة قطعة النسيج وصبغ ألوانها وصوغ شياتها).

لا أزال أذكر ما كان من صلتني بآثار الزركلي منذ الحادثة... في البيت قرأت هذا الديوان الذي طبعه في القاهرة سنة ١٩٢٥ حين أيس من السياسة والصحافة فانصرف إلى الطباعة... لون غلافه هذا الأخضر، وقطعه هذا الذي يخالف القطوع الأخرى كان من علامات الاهتداء إليه، حين كنت أضلّه فأنشده... كذلك كنت أحسب وإنما كان يهديني إليه، على نحو ما أدركت بعد من خلال ممارسات الحياة وتجربة العمل القومي، هذه الروح النائرة التي كوتها الأحداث... كان له في عيني لون النار، وكان له في أنفي عبق الثورة

وبهذا العبق صرت أعرفه، وبهذه الروح التي حملت هموم أمتها والتي
تطلعت إلى بعيد ثم غلبها الواقع على مثلها وتطلعاتها... كنت أحسّ فيه هذا
الشعر الدافئ اللاهث وكنت أقرأ وأكرّر القراءة»^(١):

عصفورة النيربين غني واروي حديث الأئين عني
أنا المعنى وما المعني غير حنين أذاب مني

شغاف قلبي وحسن ظني

عصوفة النيربين نوحى يُضمد النوح من جروحي!
لم يُبق لي الهم غير روحى ما القلب ما الجسم بالصحيح

ما بي عرق بمطمئن^(٢)

ويقول الدكتور شاكِر مصطفى:

«... وفي الشعر... في الشعر كان الزركلي في النصف الأول من
قناديل تلك الأيام الأولى، الدفعة الشعرية التي غدّت نهضة العرب بالقوافي،
في الربع الأول من هذا القرن، كان أسياد المنابر فيها الرصافي وشوقي
وحافظ والزهاوي وإسماعيل صبري، كان فيها للزركلي منبره أيضاً، رغم
شبابه الغضّ، فاتحاً دخل ندوة شعراء النهضة أولئك، وسيّداً من أسياد القافية،
أخذ مكانه بين أبناء عبقر المنتشرين... وكل ما عرفه الناس عنه يومذاك، أنه
نبنة عربية أصيلة نبتت. ما كان يعرف أي لغة أخرى يوم قال الشعر، ولا أي
مذهب من مذاهبه ومدارسه، وما يسطرون.

الكتاتيب، ثم كتب العرب وعلماء دمشق ودواوين التراث كانت عدته،
فإذا هو انطلاق على البحور وقافية مطواع ولغة أطوع... الشعر، هذا اللص

(١) المصدر السابق ص ٧١ - د. شكري فيصل.

(٢) الزركلي، الديوان ص ٩٣.

الأزلي الذي يسلب العرب حلومهم منذ الأزل، كان يتنزّل على لسانه كالحديث العفوي، وفي الشام حيث الكلمة الحلوة عبادة، وحيث الأقاليم القومية قدس الأقداس، وحيث يعرض بردى، ويعرض ليماشي النيل والرافدين، ويغزر، وهو الساقية المسكينة ليصبح النسغ القومي للملايين، لابد للشاعر أن يفهم هذه الأبيدية الشامية، ليكون شاعر الجماهير وشاعر القضية... ولقد فهمها الزركلي كأحسن ما يكون الفهم. بردى بمائه البهيمي، كالخمرة المعنقة، سقاه حتى النخاع الشوكي. ومن أدغال إدلب والخور المخصّلة بالفيء والهدير في النّيربين، كان يصوغ طينه الشعري. وكما يطلع الحقل السنابل ولا يدري، وتشمخ شمم الجبال ولا تدري، ويتدفق الينبوع ولا يدري، كذلك كان الزركلي يقول الشعر خصباً شامخاً متدفقاً... أكان يقول الشعر؟

لا... كان يمطر... وكان مطراً بغزارة البكاء وحرارة البكاء... الياسمين الدمشقي ثرثار يتفتح بآلاف الدموع ويلقيها على أكتاف الحارات وفي صحن الدار... أكان ضلالاً بكأؤه؟ ذلك التناقض بين الأحلام الطوباوية، وبين صخور الواقع، كان يمزق الزركلي. تلك النقلة الدائمة بين التفاؤل والتشاؤم كانت جرحاً على مثاليته وموسيقى نفسه. في غمرة الآمال التي أطلقتها الثورة العربية كالردة من القمام، كانت كل صدمة تأخذ عند الرواد أبعاد الفاجعة.

وما كان أكثر الصدمات. وما أفسى... وروح الزركلي كانت... أرأيت موج البحر في انقلابه المستمر على ذاته؟ كانت لطمات الواقع تستثير للصراخ الحاد، للرفض، ليقول «الكلمة» والكلمة كالنار إن لم تتخلص منها في لحظتها، أحرقتك. وبالرغم من جبروت القوى التي كان الزركلي يرفضها، فقد ظلّ يقبل تحديها سنوات.

اللعبة المستحيلة بين الكلمة والقوة لعبها حتى النهاية. أفسى ما تستطيعه القوة ضدّ الكلمة هو إعدام الجسد الذي يحملها. أما الكلمة فخالدة، إنّها التحدي

الأبدي. ولقد حُك الزركلي بالإعدام مرتين... وإذا لم تطل جسده القوة الغاشمة، فإنها لم تطل - وهيهات لها أن تطول - كلمته... وقد يُقال: إن شعر الزركلي كان غنائية طوباوية، صلاة للأقانيم الأبدية: الوطن، الوحدة، العرب... بكائيات سادية قديمة تنزل بالسيّاط على الدهر والنائبات والخونة، وليست النار. إنها إيقاد اللهب في الأعشاب وليست الثورة. هي تعويض عن الفعل.

عملية تهيئة للوجدان القلق، ولهذا تستبدل بالعمل للعب اللفظي. وتهرب إلى الماضي بدل اقتحام المستقبل، فالثورة بالنسبة إليها ليست تجديداً للذات، ولكنها موضوع للوصف والغناء ونظم الحشرات، قوافي متوالية كقوافل الجمال تعبر الأفق والغسق...

وقد يقال... وقد يقال... على أننا لا ننسى أن الثورة لعهد الزركلي لم تكن قد حدثت بعد، لا في الناس ولا في الكلمة. كان ذلك الشعر هو المعادل الثقافي للجهاد الأعشى في ذلك العصر: جهاد الفرس ضد الدبابة، والسيّف ضد المدفع، وهوج العاطفة ضد تخطيط الاستعمار، وهو اللغة الوحيدة ونقد التعامل المقبول في السوق. شعر الزركلي كان ابن عصره، ومع قمم العصر ركض...

ومع ذلك فإنني أزعّم أن الزركلي، برغم «الحذاء الصيني» الذي كانت تلبسه القافية في عصره وعنده، تمرّد وجدّد. كان يرى في الغبش إطلالة فجر جديد في الكلمة الشعرية، وكان يحاوله. صحيح أن شعره ما يزال يلبس العباة والعقال ويحتبى بقطعة حبل، ويلعب السيف والترس في الحفلات، لكنه مع ذلك لوى العقال على جانب، وترك العباة تلوح أحياناً على أحد الكتفين، ولعب السيف والترس ولكن... أعطاه بعض الأحيان الإيقاع الجديد! ومع أن غبار الصحراء ظلّ عالقاً بلحيته، والوفرة السابغة، إلا أن أنفاس الربيع المقبل كانت فيه، التجديد كان يأخذ شكل الموشحات عنده، والتحرر من إرهاب

القافية الواحدة كان يطلّ بين آونة وأخرى... وقشرة العمود الشعري، على تقليديتها العريقة الألفية، كانت تتشقق.

وإذا كان فيه رنين الخلاخيل البدوية، فقد كان فيه في الوقت نفسه، بعض من «الجاز» الشعري القادم... على أي موقفٍ بأن قضية الشعر لم تكن قضيته. كان الشعر بالعكس شعر قضية. كان يرجو أن يكون نفخ «الصور» في اليقظة العربية، أن يكون الثورة... فلماً طوّقه اليأس حتى الصمت القاتل، صرخ:

فإن أصمت فما للعيّ صمتي وبعض القول يحبس بالغمام
فودعت المحبب من بياني وآثرت السكوت على الكلام^(١)

بلى! قال الشعر الكثير في مرحلة الصمت... ولكنه كان شعراً للصمت... للتذوق البياني الحلو، ولهذا توارى في الزحام! يوم كان للحيرة، للقضية الاستقلالية، للبحث عن مستقر للجهاد يرمي بشرر كالقصر، للعرب والوحدة: بينهما برزخ لا يبغيان...»^(٢).

«وشعر خير الدين، رحمه الله، فيه ردّ مؤكد على أولئك الذين يزعمون أن القافية في القصيد تكبل الشاعر وأن الوزن يخرجه ويأسره، فإذا قرأت هذا الشعر، أحسست بالماء القراح يسيل هادناً ليناً، وبالنسمة الباردة تمرّ وانية رهوة، وتنشقت عطر الزهر يملأ المكان، ووجدت الحياة أنساً ومرحاً.

كان خير الدين شاعراً متفائلاً، أحبّ الحياة، وأحبته الحياة، فهو حتى في شعره الحزين الباكي لا يفقد أمله ولا يضيّع رجاءه، يذكر مآسي المستعمر، ثم يهيب بالمستعمرين أن يعملوا للخلاص من حكم الأجنبي، وينظر

(١) الزركلي، الديوان ص ٣٢٥.

(٢) مجلة الثقافة ص ٨ - عدد شباط ١٩٧٧ - كلمة للدكتور شاعر مصطفى.

إلى القمر في سمائه، ويرى نفسه هائماً مشرّداً قد خرج من بلده دمشق مضطراً
فيصف القمر، ويتحجب إليه ويأنس به، وكأنه قد غرق في جمال الكون غرقاً
أنساه ما هو فيه من بؤس وألم وتشريد. لقد عاش خير الدين للشعر والحب
والجمال، وعاش محباً لوطنه، فكان صوتاً من الأصوات الرنانة المججلة التي
دكّت الاستعمار أيام الثورة السورية الكبرى، ومن منا لا يذكر:

الله للحدثان كيف تكيّد بردى يفيض وقاسيون يميّد^(١)
أو يذكر:

الأهل أهلي والديار ديارى وشعار وادي النيربين شعاري^(٢)
أوي ذكر بخاصة قوله للرّثع، يصف خذلان المستعمرين أمام الثوار العرب:

ستروا بضرب الآمنين فرارهم فاعجب لعارٍ ستّروه بعار^(٣)
وأنت لا شك تعجب معي لهذا الشعر الرّصين، يخطر في أفاظه
البديعة السّهلة القوية، ويميس بقوا فيه الهادئة المطمئنة في أخريات الأبيات،
كما تعجب لهذه المعاني الواضحة الصريحة العميقة، الجديدة، ولعمري،
إنها ملكة الشاعر الكبير، يتصرّف بها تصرّف العارف بالفنّ الواثق من
عبقريته وإلهامه^(٤).

وقد نحا في شعره منحى المتقدمين من حيث الجزالة والمتانة
والأسلوب، وجمع إليه النمط المرغوب عند المتأخرين من حيث الوزن
والوضع، فجاء شعره آية في الإجادة، وغاية في شعره، حتى يخيل إلى

(١) الزركلي، الديوان ص ١١٦ .

(٢) نفسه ص ٢١٠ .

(٣) نفسه ص ٢١٢ .

(٤) صحيفة الثورة — العدد ٤٢٥١ — ١٩٧٦/١٢/١١ . مقالة للأستاذ الشاعر أحمد الجندي .

الإنسان أن تعتمد الإغارة على معنى سابق إليه، ولفظ أحكم حوكة غيره،
كقوله:

وما الموت إلا سباتٌ عميقٌ فقيم البكاء على الهاجع^(١)

وهو مأخوذ من قول أبي العلاء المعري:

الموت نوم طويل لا هبوب له والنوم موت قصير بعثه أمم

وقوله:

إنّما الشعر سلسبيل زلال كيف يدري الزلال مَنْ مَرَّ

وهو مأخوذ من قول المتنبي:

ومن يك ذا فمٍ مرٍّ مريض يجد مرّاً به الماء الزّلالاً

غير أن ما عرف ما أوتيه خير الدين من غزارة المادة وجودة القريحة،
يستبعد منه أن يعتمد مثل ذلك. على أن بين المعاني التي استعمل فيها هذه
الكلمات والتي استعملها غيره فيها - فرقا بيّناً، وخلافاً جلياً^(٣).

وشعر خير الدين الزركلي، شبيهه بالشعر العباسي في وصف الحروب،
لا يكاد يختلف عنه في الديباجة والصنعة، بل يرقى إلى الشعر الموسيقي فيه
،ويتقرّب من شعر البحتري في وصف المعركة: وهو في الشعر السياسي لا
يكاد يعلق بوحدة للقصيدة، فما عرف الزركلي في الحماسة طريقة <مطران >
معرفة متينة، ولم يتعلّق بها، وإن كان قد أصاب في بعض قصائده وحدة
المعنى والموضوع. وبقيت الأبيات منفردة لا تتمسك غالباً. وذلك لعكوف
الشاعر على شعر القدماء، وكلفه بالفحول منهم. ولولا أن شعره تطرّق إلى

(١) الزركلي الديوان، ص ٣٤٦.

(٢) الديوان ص ١٥٨.

(٣) الكيالي، سامي، الأدب العربي المعاصر في سورية - دار المعارف بمصر ص ٢٦٢.

مستحدثات العمران والحضارة، وتعابير الدهاء والسياسة للصق أكثر بالشعر القديم في معناه وفي مبناه، وفي ذلك إطراء به من وجه واحد، وهو براعته في الصيغة العربية، وتحليقه في موسيقا اللفظ وصحة التعبير ورشاقة التصوير وخفة الظل^(١).

وهناك ظاهرة عنايته بالموسيقا المتنوعة الأنغام التي تتجلى فيما نظمه من أناشيد وطنية كثيرة ذات أوزان خفيفة قصيرة أو مجزوءة، ولكن بعض قصائده تشبه ما هو عند شعراء المهجر - وخاصة الشمالي - من استعمال بعض البحور المجزوءة أو المشطورة، أو إضافة تفعيلية، ليكون النظم مناسباً للمضمون، مثال ذلك قصيدته (يا زمان):

من ترى تبسم لي يا زمان - ألا حنان
أسلمتني لا أنس لا أمان - للحدثان
أبكي دياراً خلقت للجمال - أبهى مثال^(٢)

وهكذا تجري القصيدة على هذا اللون من الموسيقا الجديدة التي تختلف عن موسيقا الشعر العربي القديم، ويبدو أن ألم الحنين إلى الوطن، هو الذي ألجأ الشاعر إلى هذه الموسيقا الحزينة المناسبة للموقف الذي نظمت فيه. وللبرهان على عنايته بالموسيقا، نضرب مثلاً آخر، قصيدته (تأملات) التي تدل نغماتها على تجربته في الحياة الحزينة، وفلسفته الحكيمة، وخروجه منها بتأملات متشائمة، يقول:

تعـبـبـ أمـ لعـبـب
وجـوىـ أمـ طـرب
ما الحياة المشتهى
صفوها؟ ما العطب؟
صـورـ تبـدو
وسرعان ما تحتجب...!

(١) الدهان، مصدر سبق ذكره ص ١٦٢.

(٢) الزركلي، الديوان ص ٣٤.

ويعبر فيها عما يراه في هذه الحياة من متناقضات، ومفارقات، فما هنا
قصور وناعمون، وهناك أكواخ وبائسون، ثم ماذا؟

يعجب المرء وما هو إلا عجب
يتمشى صاخباً وعلام الصخب
إن يفتنه أدب لم يفتنه نشب

ووزن هذه الأبيات (فاعلاتن فاعلن)، وهي من بحر (المديد). ولكن مع
حذف التفعيلة الثالثة في كل شطر وهذا التجديد في الموسيقى لم نره مألوفاً ولا
معروفاً عند القدماء ولا المحدثين، إذ لا مجزوء لبحر (المديد)^(١).

هذا هو الشاعر الذي أشاع الحياة في ألفاظه، والقوة في معانيه، وسكب
روحه أنغاماً يهدد بها الوطن الجريح آونة، ويثير بها العزائم آونة، كل ذلك
في أسلوب يتميز بالعمق والأصالة، ويحفل بالإشراق والوضوح ويطفح
برهافة الحسّ ولطافة الجرس. فشعره كما يقول «موسّه Musset» كالماسة،
واللؤلؤة، وقطرة الندى، ولكن فيها كل معاني النور والبحر، والفجر.

هذا هو خير الدين الزركلي، الشاعر البطل الذي فاق الأبطال حين أوحى
إليهم ما يفعلون، أليس الشعراء والأبطال - كما يقول «لامارتين Lamartine» من
سلالة واحدة، لأن الأبطال يفعلون أبداً ما يتصوره الشعراء^(٢).

(١) حركات الشعر في العصر الحديث ص ١٩٠. د. عزيزة مريدن.

خير الدين الزركلي - م ٧

(٢) علم الأعلام ص ٢٧٣ - كلمة للأستاذ أنور العطار.

صورة عن الحكم الصادر من المجلس العسكري الحربي للفرقة الثالثة الكائنة في دمشق، المنشور بالعدد ١٦١ الصفحة الثالثة من جريدة العاصمة، تاريخ ٧ تشرين الأول ١٩٢٠.

الجمهورية الفرنسية

المجلس العسكري الحربي للفرقة الثالثة الكائن بدمشق

حكم باسم الأمة الفرنسية

لقد أصدر المجلس العسكري الحربي المُشار إليه، والملتم الآن بدمشق بتاريخ ٩ آب سنة ١٩٢٠ باتفاق الآراء. وبعد سماع مقررات وادعاءات المفوض العسكري حكماً على عبد القادر سكر وشكري الطباع وأحمد قدرى وخير الدين الزركلى، وتوفيق مفرج، وخليل بكر ظاظا، ورياض الصلح، وعمر بهلوان، وحسني رمضان، وعثمان قاسم، وتوفيق اليازجي، وبهجت الشهابي، ورفيق التميمي، ومحمد علي التميمي، وحكم بمثل الأحكام الآنفة الذكر في ١٤ أيلول سنة ١٩٢٠، على علي زلفو السوري المولد، والقاطنين بدمشق، حيث ثبت أن المذكورين استعملوا التدابير المادية وقواهم العقلية - بمعاذة أعداء الحكومة الفرنسية، وتحبيذ مشاريعهم، فبعملهم هذا عدّوا مجرمين ومستوجبين المجازاة وفقاً للمواد ٦٣ و ٢٠٥ من القانون الحربي العسكري وقانون ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٨ - فل هذه الأسباب وطبقاً للمواد المذكورة، حكم عليهم بعقوبة الإعدام وبمصادرة جميع أملاكهم كافة، وحكم عليهم أيضاً وفقاً بمانتي ١٣٩ من قانون العقوبات العسكرية و ٩ من قانون ٢٢ يوليو سنة ١٨١٧ بتغريمهم جميع مصاريف المحاكمة، على أن تحصل من أموالهم وتُدفع إلى خزينة الحكومة الفرنسية رأساً.

وأن الحكم الحالي أصبح متحتّم الإنفاذ من يوم ٩ آب سنة ١٩٢٠، ومن ١٤ أيلول على الأخير، ومصاريف المحاكمة تبلغ ٩٨٠ فرنك.

**قصائد شعرية قيلت
في رثاء الشاعر خير الدين الزركلي**

دمعة على شقيق الروح

خير الدين الزركلي^(١)

قصيدة الأستاذ الشاعر

سليم الزركلي

«أبا الغيث» رُدَّ عليَّ صوابي
فيا فرحةً باللقاء السعيد
رجعت لأهلك بعد الغياب
رجعت إليهم خفيف الظلال
وكننت نأيت ولم تتحمل
هجرت الديار إلى منتأى
بصدرك عزمٌ يقلُّ الهموم
رحلت، وقد روع الآمنين
أحلوا دماً في عروق تلظى
قضوا أن تموت، ونجمك حيٌّ
أحقاً قضيتَ وخاب ارتقابي
تصير إلى حرقة واحتساب
تواسيهم قبل وقع المصاب
رفيع المقام، عزيز الجناب
جفونك يوماً بغير احتراب
صليب المسالك، جم الصعاب
وللحر ياأبي هوان اغتصاب
بلاء، وجاست جيوش الذئاب
وروحك بين ضلوع غضاب
ففتهم في انطلاق العقاب

(١) مجلة الثقافة — عدد شباط ١٩٧٧ — .

وروّعتهم بلهيب القوافي
بَعُدْتَ و«شامك» نَهَبُ الرزايا
أباحوا حماها وما كان حِلاً
يسيل نجيعاً على منكبيها
حملت الجراح على راحتيك
تهدهداً في ابتسام الصباح
ومرّ الزمان طويلاً طويلاً
تُتاجي الديار، ومَنْ بالديار
تُعلمهم كيف يأبى الهوان
وهبت جحافل في الغوطتين
تذودُ الفواجع والغاصبين
فكُنْتَ إليها الرَّسول الأمين
تشدّ العزائم، تغلي انتفاضاً
وعرّيتهم في جلود انتداب
تقلب في ضرم من حراب
ففضّ تراها بذوب الشّباب
فتلقفه حانيات القباب
ولحن الجراح نشيج الرباب
تنزّ حقوداً ليوم الحساب
وأنت على حزنٍ واكتئاب
وما من مُجيبٍ، وما من جواب
أبيّ، وكيف فنون الغلاب؟
وثارت كواسر في كلّ غاب
وتحمي الحمى من أذى واستلاب
بين الشّعاب، وبين الهضاب
وما بك من خشيةٍ واجتئاب

* * *

أ«خير» الأقارب والأبعدين
وسعت الرجال بحلم الحكيم
ولطف الأنيس، وأنس الجليس
غذوت القلوب بحلو النشيد
و«خير» الصديق، و«خير» الصّحاب
ونُبل الحميم، وفجّ الرحاب
بطول أناةٍ، وصبرٍ عجاب
ورُضت العقول بسحر الكتاب

حَذَقْتَ السِّيَاسَةَ، فَنَّ الحَيَاةَ
 وَجُبَّتَ القَقَارُ مع النَّاهِضِينَ
 وَضَعْنَا الوَشَاحَ قُرْباً وَبُعْداً
 يُعَرِّينَا بِالهُدَى وَالبَيَانِ
 نُحَسَّ جِرَاحَ العُلَى وَالهَيِّنِ
 وَنَحْفِزُ لِلْمَجْدِ أَخْيَارَهُ
 لَقَدْ كُنْتُ لِي أَقْرَبَ الأَقْرَبِينَ
 طَبَعْتُ بِرُوحِكَ قَلْبِي الفَتِيَّ
 يَرَى العَزَّ فِي وَطَنِ الأَكْرَمِينَ
 أَتَابِعُ خَطْوَكَ أَنَّى سَرَيْتَ
 عِلَامَ مَضِيَّتِ وَخَلْفَتِنِي
 وَكُنْتُ أَخَافُ عَلَيْكَ الرَّدَى
 وَجِئْتُ الأَحْبَبَةَ وَالأَوْفِيَاءَ
 وَكَيْفَ السَّلْوَى، وَأَيْنَ العِزَاءَ
 أَسْقِيهِ نَفْسِي صَبَاحَ مَسَاءَ

* * *

يُفْطِرُ قَلْبِي، وَيَفْرِي إِهَابِي
 وَأَقْضِي اللَّيَالِي نَجِيَّ السُّجُونِ

وأغلق دون السّوانح بابي
وآن أواني، وحن اغترابي

وأرخص فيك الدموع الغوالي
قضيت حياتك رهن اغتراب

* * *

تألّق فيك ائتلاق الشّهاب
وفيك طويّنا عقود الشّباب
«شّام» الصّبي، ومهاد التّصابي
منابرها في أسى واضطراب
وكانوا الهداة، وفضل الخطاب
وقد رقدوا في مطاوي الغياب
لكلّ دمٍ في الرّبوع الرّطاب
مراتعها بالحنين المُذاب...
وللّطير تسرح فوق الرّوابي
لدنيا النضال، وساح العراب
لشمس مجلّلة بالضّباب
موشحة في سواد الخضاب
يُطربها من وراء الحجاب
ضحوكاً تسترّ خلف الرّباب
مُحوّمة، في رقيق العتاب

عزاء «أميّة» عن شاعرٍ
عزاء «دمشق» وأنت الهوى
عزاء «شّام» العلى والجهاد
عزاء لـ«دنيا العروبة» ولهى
تحنّ لألفها الغاربين
تحنّ لفرساتها المُهمّين
عزاء لكلّ نجارٍ أصيلٍ
عزاء لـ«دنيا على الشّام» تندى
عزاء لـ«عصفورة النيريين»
لدنيا المفاتن في الغوطتين
لشمس المروج تراقص جذلي
عزاء لـ«جلق» والأمسياتُ
عشية كان «الهزار» الغيورُ
يُغرّد للقمر المشربِ
يُسائله، والخطوب الجسم

أتضحك في وجنات السماء

وجنّتنا من شجا في عباب

* * *

«أبا الغيث» نم في ضمير الزّمان

شهيد النّوى، والمرامي الرغاب

وقرّ نزيل جنان الخلود

عليك السّلام، رضيّ الإياب

فقد كنتَ برّاً، شديد الوفاء

نقيّ السريرة، عفاّ النقاب

لئن أنكرت زُمرة الأديعاء

مجالك في داميات الشعاب

تزفّ عذاراك للرابضين

توَجُّ حفائظهم كاللهاب

فليس يضيرك هذا الجحود

وما بك من مطعن أو معاب

فالوطن المُفتدى ما عمّلت

وليس لغنم، ولا لاكتساب

وللعلم جهْدك والعارفين

ولا من جزاء، ولا من ثواب

مهّرت الحقيقة، شمس الحياة

عُصارة قلب ندي الحباب

نصّلت العباقر نصل السهام

ونضرتهم في بديع الإهاب

عزاء لـ «أعلامك» الخالدين

وقد سفروا بعد طول انتقاب

ترصّصهم بالبيان الأنيق

منائر في شامخات الكتاب

«دمشق» ثوى في التراب الحبيب

وكلّ حبيب غداء التراب

حاضنت حدائثه والشباب

فكان «النقاب» خطي الركب

وكان لسانك في الفاجعات

وكان سنائك يوم الضراب

تمنّى ظلالك تحنو عليه

فينشى بريحك عند المآب

فشقّ الضريح بعيداً بعيداً

وعزّ على السيّف دفء القراب

وفينا بعهدك رغم العُقوق
عشقناك فوق حدود الهوى
وهمنما بدهرك يصفو ضياء
لك المجد ما خفقت أنجم
وفيضُ أياديك طوقُ الرقاب
بأفئدةٍ نزهت عن كذاب
ويكسو الحضارة زهو الحقاب
وحنتُ إليك صُذور السحاب

سليم الزركلي

١٩٧٧/١/٥

* * *

دمعة وفاء (١)

قصيدة الأستاذ أحمد عبيد

«أمين التراث العربي»

في رثاء خير الدين الزركلي

ما بقائي وقد مضى إخواني
كل يومٍ أرى المنايا كفاحاً
كم صديقٍ برٍّ وكم من شقيق
كُنْتُ أُرْعَاهُ مشهداً ومغيباً
غاب عني فلات حين تلاق
ربّما مَرَّتِ السّنونِ دِراكاً
فإذا مَنَّتِ الليالي بقرب
قد رضعنا صفو الوداد شباباً
والوفاء الذي عقدنا عراه
أن يفرّق ريب المنية جسمي
ودهاني بالقارعات زماني
تنتحيني بما يهدّ كياني
كان لي عدةً ودرعاً أمان
مثل ما كان منعماً يرعاني
غير أنني أراه مِكَ جَناني
لا أراه فيها وليس يراني
فكأننا لم نفترق لثواني
وكأننا كنّا رضيعي لبان
ما اعترته عوامل الإيهان
ننا فإننا روحان مؤتلفان

(١) علم الأعلام ص ٢٧٧ —

أَوْ يَكُن مَوْتَهُ نَذِيرَ تَنَاءٍ
قَلَمًا تَرْجَى الْمَنِيَّةَ حَيًّا
يَا أَبَا الْغَيْثِ غَيْثَ وَجْدِي هَامٍ
وَالْأَسَى لِأَذْعَ جَوَانِبِ نَفْسِي
وَشَوْوَنِي أَبْتَ عَلَيَّ فَمَا تَطْمَ
أَيْنَ تِلْكَ الْأَيَّامِ كَيْفَ اسْتَقَلَّتْ
إِنَّ فِي الْقَلْبِ حَسْرَةً مَا يَجْلِي
يَا خَلِيلِي وَمَا أَبْرَكَ خَلًّا
كُنْتُ أَرْجُو بَأْنَ تَخَلَّفَ بَعْدِي
غَيْرَ أَنْ الْقَضَاءَ يَجْرِي بِقَدْرٍ
لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَاكَ إِلَّا
أَنْتَ أَنْشَرْتَ فِي كِتَابِكَ أَعْلَا
وَجَمَعْتَ الشَّتِيَّتِ مِنْ مَآثِرَاتِ
مَنْ نَبِيٍّ وَمَنْ خَلِيفَةَ رَشِدٍ
وَأَمِيرٍ وَقَائِدٍ وَحَكِيمٍ
وَفَقِيهِهِ وَشَاعِرٍ وَأَدِيبٍ
سَلَفٌ صَالِحٌ وَخَلَفٌ حَمِيدٌ
وَلَسَوْفَ الْأَيَّامُ تَنْشُرُ مِنْ ذِكْرِ
وَلِئِكَ الشَّعْرُ كَالدَّرَارِيِّ اتِّتْلَقًا

فوفاتي غداً بشير التاداني
بعد فوت اللدات والأقران
واضطباري على الفجيرة فاني
بجسيم تشور كالبركان
ففى ما في الضلوع من نيران
بالصفي الرضي من خلصاني
ها سوى الرتع في رياض الجنان
مستقيم الإسرار والإعلان
فأوقى لواعج الأشجان
فتحول الآجال دون الأماني
لمح طرف أو خفق قلب عان
مأطوتها القرون في الكتمان
لهم موجزاً بسحر بيان
قام يدعو بدعوة الإيمان
وعليم بكل فنّ وشان
من فحول الرجال والنسوان
كم أقاموا للعلم من أركان
رك عطراً يفوح في الأكوان
واتساقاً كمثل عدّ الجمّان

هو في حالك الخطوب ضياءً
وهو في موكب السلام أغاريد
أنذروك الحمام حين نذرت
وطن العرب واحداً فسواءً
أي رزءٍ عرا ولم تك فيه
بشواظٍ من سائرات القوافي
وتعيد الآمال مؤتلفات

* * *

إن هذي الحياة ومضة برق
ثم نُجزى بما جنته اليدان
فإذا ما رأيت ثم رأيت الـ
فعلى الشعر والبيان سلامٌ
تختفي بعدها عن الأعيان
من جميل الآثار بالإحسان
ملك يزهى بعبقري حسان
وعلى الخير رحمة الرحمان

أحمد عبيد

* * *

نحن السُّقاة العطاش (١)

القصيدة التي ألقاها شاعر حمص
الأستاذ عبد الرحيم الحصني في حفل تأبين
المرحوم الشاعر خير الدين الزركلي

اثنان ما عرف التاريخ مثلهما
تجسدا بك من فجر الشباب، فلم
كم انتشيت وكم أخذت معتكفاً
أيام كنت، وكان الشعر محتجزاً
وكان ما كان من ظلم ومن عنت
مآثر من بقايا الأمس يعرفها
تلك الحكايات ما مرت نساءها
علم، وثورة إنسان، وأنت هُما
يُسمع زئيرك إلا خالصاً لهما
عليهما؛ وكم استأنست عندهما
طيّ الصدور، وكان الجور محتكماً
يحار متسع الأوهام بينهما...
من عايش الأمس لما استنفّر
بخاطر المجد إلا اختال مبتسماً

* * *

يا قاطف الشعر من كرم الإباء لقد
لما ألمت بنا الأحداث وازدحمت
أصغيت للحق شعراً ناصعاً ودماً
لم تُغمدِ الماضيين السيف والقلم

(١) مجلة الثقافة — عدد شباط ١٩٧٧ — .

ولم تقف دون صدّ البغي مرتضياً
حتى انجلي بجلاء الظلم كل غد
عجبت كيف يرام العزّ مكتسباً

* * *

مهلاً أبا الغيث للفيحاء منك هوى
أهديتها كل ما أبدعت من قبل
لا ساكناً ألفت يوماً ولا سكناً
لئن سعيت لأفياء الحجاز وقد
فلست أول حرّ في الخطوب جنى
لكنما الشّام ما مرّت بثانية
وها هي اليوم لا آهاتها سكنت
وللمحبة ألوانٌ وأصدقها

* * *

يا مشرق المجد، يا فيحاء ما
بك ازدهت معجزات الأمس
والشعر مذ كان في أحضانك
كذا عرفتك يا فيحاء من صغري
مالي أرى اليوم سوق الشعر
والجانحين عداة الضاد ما رحموا

لشعبك الشمم المجروح والبرما
مؤمل، واستقر الشّمل والتأما
والمجد. ما كان بالإيمان مقتسماً

ما زال في كل سمع ينشر النّعما
فكيف تحجب عن تلك الشّفاء فما
عيناك يوم رأته غير الشّام حمى
حباك عاقلها الإكرام والنّعما
من ظلّها المشتهى واستبعد السّأما
إلا انبرى الشوق فيها والوفاء نما
على نواك، ولا ميثاقها انصرما
ما أجج القلب لا ما رصع الكلما

* * *

شمس العروبة أندی من رباك سَمَا
من راحتك الفدا والكبر والشّمما
دنياه فانساب لحناً خالداً وسما
غيثاً على كل أغراس الجمال همى
بجانبيك، ووهج اللغو محتدما
باسم - الحضارة - أمجاداً ولا

قد مثّلوا الظهر (يا للظلم) محتقراً
وزيّفوا اللغة العصماء وانتهجوا
إني أنزّه قومي عن غوايتهم
وصوروا - العهر - (يا للعار)
ما حلّ من سبل الدنيا، وما حرماً
وكل جانٍ سيلقى شرّاً ما اجترماً

* * *

فيحاء نكرك موقوف على شفّتي
ردّي لعيني وجه الشام وانتزعي
فالودّ أسعده ما كان متصلاً
يا لهفة نحن أولى باستجابتها
نحن السقاة العطاش، من
عفواً أبا الغيث إنّ الداء ما انحسما
وأين والمحن الرعناء ما برحت
مشاهد يصفع التاريخ واجمها
شعراً ندياً ووجداً ظامئاً نهماً
كل المساحيق إنّ الوحي ما عقمأ
والعهد أتعهه ما كان منقصماً
من البرية، إنّ الشعر ما هرماً
هذا العطاء ولو متنا عليه ظمأ
والجرح رغم الأساءة الصيد ما
وما تزال ألوف تسكن الخيما
كأتما العدل في إخراجها انهزما

* * *

طوت خوافي أحزاني على ألم
فالسعد حيث يكون الجهل منفرجاً
إني لأعذر من لا يعرف الألما
والهمّ حيث يكون العقل معتصماً

* * *

يا شاعراً كان ملء السمع منتشياً
أكان حظك من دنياك متفقاً
وثائراً كان ملء الدهر منتقماً
والمعطيّات اللواتي كنت ملتزماً
من نعميات الأمانى أجر ما اعتزماً
لا أحسب العمر وفي كل معتزماً

كذا العبارة الأفذاذ في بلدي وأيهم من نيوب الدهر قد سلما
سيدكرونك بعد اليوم في صَلفٍ إذا الأحاديث كانت سيرة العظما
يكفيك أنك في كل الصدور على مرّ الزمان ضياء يهتك الظلما
والمكرمات اللواتي كنت رائدها في كل صفحة خلد سجّلت رقما

عبد الرحيم الحصني

* * *

«عَامُ الْأَعْلَامِ» (١)

قصيدة المؤلف الشاعر

«أكرم جميل قنبس» في رثاء

«خير الدين الزركلي»

في ذمّة التاريخ «خَيْرُ» الشّام
تروي قريحته النفوس، لأنّها
في كلّ مفترق بأفق بلادنا
غنى لهذا العالم العربي في
مسح الظلام عن العيون وكم رنت
يا «خير» أنت منارة الجيل الذي
يا حامل الشّعْر الأصيل رصاصةً
إنّي أرى فيك العروبة كلّها
خلّدت للتاريخ أحلى دُرّة
هذا الزمان على حروفك باعث
علم على الأمجاد والأيام
نبغ الأصالة، وهي كأس الظامي
نور على أهدابه مترامي
العصر الذي صلبوه بالآلام
لحروفه قيثاراً الإقدام
ولدت بيوم نهوضه أحلامي
في صدر من جاؤوا لظلم الشّام
وبكم تسامت كعبة الإسلام
لما تركت ودیعة «الأعلام»
أقلامه، فامدد دم الأقلام...

* * *

(١) انظر ديوان — إليك يا حبيبتني — شعر أكرم قنبس — منشورات اتحاد الكتاب العرب

بدمشق ١٩٩٢.

مراجع الدراسة

- ١ - الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث - أنيس المقدسي - دار العلم للملايين - الطبعة السابعة ١٩٨٢.
- ٢ - الأدب العربي المعاصر في سورية - سامي الكيالي - دار المعارف بمصر.
- ٣ - إليك يا حبيبتي - شعر أكرم جميل قنيس - منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٩٢.
- ٤ - جمر أشعل الرماد - د. إسماعيل مروة، دار الجندي - دمشق - ط ١ ٢٠٠٩.
- ٥ - حركات الشعر في العصر الحديث. د. عزيزة مريدن - جامعة دمشق ١٩٨١.
- ٦ - ديوان الزركلي - الأعمال الشعرية الكاملة - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى ١٩٨٠.
- ٧ - الشعراء الأعلام في سورية. د. سامي الدهان - دار الأنوار - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٦٨.
- ٨ - الأعلام للزركلي - الجزء الثامن - الطبعة الرابعة - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩.
- ٩ - علم الأعلام - خير الدين الزركلي - صادر عن الإدارة السياسية في سورية ١٩٧٨.

- ١٠ - مجلة الثقافة السورية - عدد شباط ١٩٧٧ - لصاحبها ورئيس تحريرها مدحة عكاش.
- ١١ - صحيفة الثورة العدد ٤٢٣٦.
- ١٢ - صحيفة ريدة تشرين عدد /١٠/٢/١٩٧٧.
- ١٣ - صحيفة الثورة - العدد ٤٢٤٠.
- ١٤ - صحيفة الثورة - العدد ٤٢٥١.

* * *

الفهرس

الصفحة

آراء في الشاعر	٥
مقدمة المؤلف	٧
موجزة ترجمة الشاعر	١١
الوطن والشاعر	١٩
معاشته لآلام الوطن وكفاحه الثوري	٣١
الدعوة للثورة والتبشير بالمستقبل العربي	٤٥
الشاعر ومفترق الموت العربي والنهوض الجديد	٥٣
ظاهرة الرثاء في شعر الزركلي	٦٣
صورة الواقع الاجتماعي في شعره	٧١
الشاعر والغزل	٨١
من الخصائص الأدبية في شعره	٨٧
صورة عن الحكم الصادر لإعدام الشاعر	٩٨
قصائد شعرية قيلت في رثاء الشاعر الزركلي	٩٩
- دمعة على شقيق الروح للشاعر سليم الزركلي	١٠١
- دمعة وفاء للشاعر أحمد عبيد	١٠٧
- نحن السقاة العطاش - الشاعر عبد الرحيم الحصني	١١١
- عام الأعلام - الشاعر أكرم جميل قنيس	١١٥
مراجع الدراسة	١١٧

د. أكرم جميل قنيس

- * مواليد ١٩٥٨م - مدينة الحارّة في محافظة درعا - حوران - جنوب سورية - بجانب قرية جاسم مولد الشاعر أبي تمام.
- حاصل على إجازة في الأدب العربي من جامعة دمشق. ودبلوم في التأهيل التربوي من كلية التربية بجامعة دمشق. ودبلوم في الطب النبوي وعلوم الأعشاب من الكلية المحمدية - باكستان - ومن المعهد العربي للطب النبوي وعلوم الأعشاب - الشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة). وكتوراه فخرية بالعلوم الصحية والطب البديل.
- عمل مدرساً للغة العربية، وهو الآن يعمل موجّهاً لمادة اللغة العربية في دولة الإمارات منذ عام ٢٠٠٧. وعضو اتحاد الكتاب العرب - سورية. (منذ عام ١٩٩٤). وعضو اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات (الشعر والدراسات). منذ عام ١٩٩٤. وعضو الاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب - الأمانة العامة.
- له دراسات شعرية منشورة منها:
- اللهب المجدول - دمشق ١٩٨٨م. ورحلة في عيون - دمشق ١٩٩١م .
- صلاة على روح امرأة - دمشق ١٩٩٢م. وإليك يا حبيبي - دمشق ١٩٩٣م. ولهيب الانتماء - دمشق ١٩٩٦م. وصهيل في مرابع المجد - الشارقة ٢٠٠٠م. وأبائيل الأقصى - الشارقة ٢٠٠١م. وقمر الحجر - مجموعة شعرية للأطفال - دولة الإمارات العربية المتحدة ٢٠١٠. وليل جيكور - الشارقة ٢٠١٠م....

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ١٠٠ ل.س أو ما يعادلها